
شجرة اللبلاب
محمد عبد الحليم عبد الله

مطبوعات مكتبة مصر

شجرة اللبلاب

تأليف
محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

ـ ١ ـ

كانت طفولتى من ذلك النوع الذى يتعذر على الإنسان أن ينساه ... لم تكن طفولة عادية غافلة بلهاء ، تمر أيامها على رأس الصغير فلا تترك فيه أثرا كما يمر بجوارك فى الشارع بعض أناس ، فلاتحس أنهم مروا ـ بل هى على النقيض من ذلك واضحة الليالى والأحداث كأن الزمن كان ينبهنى أثناء مسيره إلى بعض ساعاته ، بحركة غير عادية يأتيها ، كما يقول المدرس لتلميذه بعد كل نقطة غامضة يشرحها:

أفاهم أنت ؟

أجل ، كانت طفولة من نوع يتعذر على الإنسان أن ينساه .. إننى لأذكرها الآن وأنا فى ريق شبابى وريعان صباى ، فتلفحنى الحسرة على غلام هو صورة منى ، لكنها صغرت عدة مرات فأكاد أحتضنه وأنا أرثى له . ثم أقول وكأننى أتحدث عن غير نفسى : مسكين ذلك الصغير !! إن الأقدار تفننت فى ايذائه حتى كادت تخلق منه لصا لكثرة ما حرمته ، أوتخلق منه مجرما لقلة ما هفا عليه من حنان ، أو تخلق منه غبيا لعدم من يبصره بأغلاطه . كادت تخلق منه أحد هؤلاء أو

هؤلاء جميعا ، لولا أن الأقدار التى قلبت به الزورق مكنته هى نفسها من أن يركبه وهو مقلوب ... فنجا ، وإن لاقى فى سبيل النجاة هولا وشدة !!

غير أن هموم أيامنا الخوالى كثيرا ماتكون من أسباب إسعادنا فى الحاضر ، وبخاصة إذا أخذت متاعب الحياة فى الانهيار أمام كفاحنا شيئا فشيئا ، أعنى أن محنتنا فى الحاضر حينذاك تضؤل فى أعيننا إذا قيست بهموم ماضينا فنقف لها صامدين ونستشعر تفاؤلا وسلاما ، وهكذا كان شأنى .. وهذا مااستفاده شبابى من عهد الطفولة... فأصبحت لا أخاف المصاعب لأننى نجوت من الهلاك وأنا جد ضعيف ليس على جناحى إلا الزغب وحده . فكيف أرتاع ولى من شبابى وتجاربى ما أتلمس به أسباب الخلاص ؟!

كان أبى طرازا من الرجال غريب الطبيعة شاذ الأطوار ، اشتهر بين أقربائنا وأصدقائنا بشدة عناده وتعصبه لرأيه ولو كان على خطأ . يحزن جدا إذا أجبره طرف ما على أن يتراجع عما رأى ويكاد لا يحزن إن فقد منفعة أوغنيمة ما دام قد فعل ما أوحته إليه نفسه . إنى لأستعيد صورته الآن فأكاد أبتسم ونفسى مليئة بالأسف .. أبتسم وآسف معاً من أجل هذا الرجل الذى لا يفتر عن مديح نفسه ولاالتحدث عن ذكائه. كان يقول فى الموقف الذى ينجح فيه : إن رأسى هذا ليس كرءوس سائر الناس ... إنه جمجمة أقفلها الله على جمرة متوهجة نفاذة ... إنى ذكى !! أما إذا أخفق ـ وكثيرا ما يخفق ـ فإن عينيه الضيقتين

تلمعان بأسف وعناد تحت جبهته البارزة الكبيرة ويقول : ليس فى موقفى ما يعيب ، إلا أننى رجل سيىء الحظ . ثم يمط شفتيه وهو لا يزال يردد : أجل سيىء الحظ . ليس هناك أكثر من هذا !!

كان ناظرا لأحد المكاتب الأولية التى تخضع فى إدارتها لمجلس المديرية خضوعا مباشرا . ولقد سلطه الله فى وظيفته تلك على سبعة من المدرسين أساء رعايتهم ، فانقلبت وبالا عليه . فلقد اتخذ منهم أولياء وأعداء فما رحمه العدو ولانصره الولى ، لأنه كان منهم الذين يحبون للنظرة الأولى فيعتنقون الحب ، ويكرهون للنظرة الأولى فيعتنقون الكره ، ويزعم أن لقلبه فى اختيار الناس طريقة لا تخطىء ، من أجل ذلك كله لم تقم له صداقة واحدة على دعامة من التجربة الحقيقية .

وكثيرا ما كان يعود من مدرسته التى يقطع إليها كل يوم خمسة كيلومترات فإذا به واجم مقطب متجهم ، فترى عيناى البلهاوان وأنا صغير جبهته المشرفة العريضة ، وقد تحولت جلدتها كلها إلى غضون دقيقة متقاربة متراصة تذكرنى بالبلح المنكمش الجاف الذى كنت ألتقطه من تحت أقدام النخيل . حتى إذا ما احتواه المنزل دخل من فوره إحدى حجرتين تقعان فى الناحية الشمالية من الدار ، وارتفع صوته قبل أن يغلق بابها عليه يصيح ويتوعد كل من يبدى حركة واحدة تقطع عليه سلسلة أفكاره ، وهنالك على كنبة تخرقت ملاءتها البيضاء وأمام منضدة من الصاج ذات ثلاث قوائم نحيلة ينشر صحيفة يسطر فيها مذكرة سيرفعها فى الغد إلى مجلس المديرية ضد ثلاثة من المدرسين

على الأقل ، حتى إذا ما فرغ من شأنه وانفتح عليه الباب إيذانا باستئناف الحركة ، رأيته يمسح بيمينه شاربه الذى يشبه بصمتين من بصمات الإصبع ، وهو يقول : لأجعلنهم أحاديث ... إنهم كلاب .

لم تكن جمجمته قد أقفلت على جمرة متوهجة نفاذة كما يقول . وإنما أقفلت على دخان ... أقفلت على لا شىء ، أو على شىء لا يغنى عن صاحبه فتيلا ، لأن سبعة من المدرسين إخوانه قد انقلبوا عليه فى يوم من الأيام ، وأذاع كل فريق منهم إلى الآخر ما كان يسره إلى الناظر أيام الشقاق . وهكذا فسد تدبيره كما كان يفسد فى الغالب ، واشتهر بين الناس بجفاف الطبع وجفاء الخلق ! فعاش فى فقر من الأصدقاء .

كانت طباعه بين الناس فى الخارج آية من آيات الله فى الشكاسة والصلابة ، أعسر من الحديد يطرق وهو بارد ... أما فى البيت وبين يدى امرأة فقد كان طبعه رقيقا لا يقوى على اللمس . لقد فقدت أمى وأنا فى الخامسة من عمرى ، ودست تراب المقبرة حافى القدمين وأنا صغير ، ورأيتهم هناك يدفنون الحنان على بعد مئات الأمتار من القرية، ثم تزوج أبى وأخذ العمر يتقدم بى فأدركت بعد أن عاشر غير أمى أن عزيمته أمام النساء هواء وهباء .

كان أبى قاسيا على ، وأنا لا أستطيع تعليل قسوته إلا بقسوة الناس عليه ، لكنى أعود فأقول : إنه هو الذى جر على نفسه قسوة الناس . كان رجلا كثير الهواجس سريع التصديق لا يعدو أن يكون

حزمة من الأعصاب معظمها تالف ، حزمة من الأعصاب متوسطة القامة ترتدى جبة وقفطانا وتلبس عمامة وتتخيل فى بعض الأحيان أن أية ضحكة أو همسة فى الطريق العام من إنسان مجهول ، إنما هو المقصود بها لامحالة .

وهكذا عاش فى سلسلة متتابعة من فقد الأصدقاء ، أو بالأحرى وعلى حد قوله : كأن مهمته فى الحياة أن يكتشف خيانات الأصدقاء له . وهذا صحيح إذا قسناه بمقياس أبى فإن كل شخص يعرف اسمه كان يعتبره صديقا . ولما فشل فى صداقاته عز عليه أن يفشل كذلك فى عشرة النساء فانقلب فى معاملته لهن إلى الطرف الثانى ، فلم يقع له كثيرا أن غضبت منه امرأة .

تفتحت عيناى على الدنيا فرأيت أباً هذه طباعه ورأيت أماً تشتكى من سقم دائم وضعف ملازم ، وكانت تقول كلما اشتدت بها العلة وأحست قرب أجلها : آه يا بنيتى يا « هنية » كم وددت أن أعيش من أجلك أنت ومن أجل هذا الصغير !! أريد أن أسعد كل منكما قبل أن أموت ، ولكن مناها تخلفت عنها وزحفت ظلال الموت إليها فى إحدى ليالى الخريف .

وهببت من النوم مذعوراً على عويل أنكرته فرأيت أختى هنية من خلال أجفانى التى كان النعاس يثقلها ، رأيتها تتململ على سرير أمى كأنها ملسوعة ثم رأيتها تجرى إلى حجرة أخرى فتبدل بثوبها الزاهى ثوباً أسود ، ينهض أبى من مكانه القريب يبكى فى صوت أجش

وتنقلب سحنته من البكاء إلى هيئة أنكرها ، فيمشى جلال الموت رويدا رويدا إلى قلبى الصغير .

كنت إذ ذاك فى الخامسة من عمرى لا أعرف معنى الموت ولا معنى الحياة ، ولكننى أحسست انكسارا وخيبة حين عدت إلى دارى فلم أر المنظر الذى تعودت أن أراه ، وخيل إلى ـ لأننى ورثت بعض أعصاب أبى الضعيفة ـ أن كل شىء فى دارنا تغير حتى النخلتين اللتين كانتا قائمتين فى الباحة القبلية ، خيل إلى أن هاتين النخلتين كانتا ترسلان من سعفهما حفيفا حزينا .

ولاحزن مثل حزن الصغار ... آلام يدركونها بالغريزة وحدها فلا ينفع الترفيه فيها... حدثونى فيما بعد أننى عفت الطعام وعزفت عن اللعب فلم أعد أتعقب العصافير ولا أعشاش الزنابير مع الغلمان من أندادى . وكنت أسألهم عن الموت أسئلة غريبة كلما هفت نفسى إلى أن أرى أمى ، وكلمارأيت الطعام يقدم إلى بيد « هنية » التى كانت فى الخامسة عشرة من عمرها وقد كان من قبل يقدم لكلينا بيد أمنا . كان سؤالى عن الموت معناه أن نفحة من الشوق لفحت قلبى الساذج وأن طيف الحنان تخايل أمام طفولتى شبحاً أدركه بخاطرى فتشتاقه عيناى، فأقول لأختى : لم ماتت أمى ؟ ومتى يعود من يموت حتى أراها ؟ فإذا ماسمعت منها اسم البعث واسم القيامة وعرفت أنه لا يعلم وقتها إلا الله ، طويت جوانحى على يأس وأسى وحسرة .

وهكذا قست على الحياة ، على أن قسوتها لم تبلغ ذروتها طوال

المدة التى عاشت أختى إلى جوارى فيها لأنها كانت طبعة ثانية مختصرة من كتاب الحنان الخالد .. كانت صورة للأمومة وإن لم تتوافر فيها كل ألوانها .

ولقد انتقلت بعد وفاة أمى من الفراش الإضافى الذى كان لى فى حجرة أبى إلى الفراش الذى تنام فيه أختى هنية فى حجرة أخرى ولم يكن سوى حشية مفروشة على حصير . ومنذ ذلك التاريخ بدأ أبى ينام وحده . ولاحظنا بمرور الأيام أن طبعه يزداد حدة وأن صدره يضيق لأتفه غلطة تصدر عن أحدنا ، ومعنى هذا أننا لم نجد منه بعد فقد أمنا رحابة صدر ولاجناح رحمة ، فأخذت أدرك مع الأيام مرارة الحرمان من نداء لذيد يردده أندادى من جيراننا الصغار حين يقول أحدهم : ياأمى .. فأرى على رءوسهم فى هذه الحالة تاجاً من العز لا يراه إلا المحرومون .

ومضت ثلاثة أشهر فلاحظت أن أبى بدأ يغلظ القول لأختى وينحو عليها باللائمة إذا باغتها وهى تبكى أو إذا تردد ذكر أمنا عدة مرات، وسمعته يقول لها ذات مساء : ماذا تريدين أيتها البلهاء ؟ أتريدين أن نعيش العمر كله فى حداد ، وإن أعمال البيت كثيرة عليك وأنت لا تزالين بنية ؟ ولهذا بدأت أفكر ...

ولم يكمل عبارته كأنه رأى من الحكمة ألا يكملها ، ولم أفهم أنا ماعناه أبى فى هذه الليلة ، لكننى أيقنت أنه شىء لايريحنا حين رأيت « هنية » تنسحب من مجلسه بعد قليل متعللة بعمل من أعمال المنزل، ثم نادتنى بعد فترة حيث أوينا إلى فراشنا .

وتكورت أختى على الحشية فى ثيابها السود وتكورت إلى جوارها ، ثم شدت علينا غطاءنا المشترك وجعلت تتحسس ظهرى وتربت كتفى لكى أنام . ويدأ النوم يرنق بعينى لكننى انتبهت ثانية على بكائها المكتوم . ولا أدرى لم طفر الدمع من عينى سريعاً قبل أن أعرف السبب ، وكثيراً ما كنت أراها تبكى فلا أفعل لأن عينى عجزتا عن مجاراه عينيها .

قلت لها فى ذعر ورعب وأنا أطوق عنقها بذراعى النحيفة :

ـ ما بك يا هنية ؟ ! فلم تجب .

ـ أختى ...

ـ لا شىء يا حسنى . نم !

ـ أتبكين بالليل وتبكين بالنهار ؟

ـ سأنام .

ـ كذا ... هل أبكتك أمى ؟!

ـ فى هذه الليلة ؟ لا ... ولكن أبكانى أبوك .

قلت لها وأنا أقبلها :

ـ إنه دائما يسب ويلعن فلا تبكى وإلا بكيت أنا الآخر .

ـ اسمع ياحسنى ... إن أباك سيتزوج . (فأجبت بسرعة وبعاطفة محتدمة لا أدرى ما هى) :

ـ إذن ستكون فى منزلنا امرأة جديدة ؟

ـ نعم .

ـ وستحبنا كأمنا ؟! أليس كذلك ؟! .

فلم أسمع منها جوابا ، إلا أن سحبت غطاءنا حتى سترت به وجهنا ، فغاب عن ناظرى نور المصباح الضئيل الذى يشع من كوة فى الحائط ، ثم قالت هنية بعد ذلك بصوت مهموس . كلمة واحدة لم تزد عليها : نم !! .

فما أن كففت عن الكلام حتى سبحت فى النوم .

وأصبحت بعد هذا أتخيل دائما شبح امرأة تمشى فى منزلنا متنقلة بين أرجائه ، وكان من الطبيعى أن أتخيلها فى صورة أمى وفى ملابسها وسنها ، وأن أخلق عليها خلالها وخصالها وطريقة تحدثها . وأن أتصور أول عمل تؤديه نحوى عقب عبورها عتبة الدار داخلة ، أنها تجدنى واقفاً أمام حجرة الانتظار ، فتبسم وتنطوى على حتى يسمح لها قوامها بأن تقبلنى، ثم تمضى لتخلع ملابسها السوداء التى كانت بها فى الخارج وهى تقول :

ـ هأنذا عدت من عند خالتك ... لاتظننى غبت ... ترى هل جعت؟ هل طلب أخوك شيئا ياهنية ! لِم لَم تستبدل ملابسك هذه التى بقعتها صبغة التوت والتى أراها على أصابعك كذلك ؟ ... وما هذا الذى فى وجهك ، أهى لسعة نحلة ، أم لطمة صبى أثناء الشجار ؟ ما السر فى كراهتك للصندل ؟؟ .. أما تخاف قطع الزجاج وأشواك السنط والنخيل التى تملأ أرض المكان ؟ ...

هكذا كانت تفعل أمى معى إن غابت عنا قليلا ثم عادت ، وهكذا

تخيلت أن المرأة التى سيتزوجها أبى ستجىء لتعمل هذا الذى تصورته... أشياء ندفنها كلنا يوم ندفن الأمهات ، منها التافه ومنها العظيم ، لكن التافه والعظيم منها أمام قلوبنا سواء فى القيمة ... عند الصغار وعند الكبار ، لأنها أفعال الأمهات . لاعلة إلا هذا ... الشىء نفسه سبب ومسبب وعلة ومعلول !! .

لم يجر فى نفسى من الذعر ماجرى فى نفس أختى من مقدم امرأة جديدة على بيتنا ، لذلك كنت أعجب من انقباضها وحزنها الدائم . ولقد كانت أختى نفسها عاملا من عوامل تخفيف حزنى على أمى وملهاة لفكرى المحدود عن أن يتصور المستقبل المظلم فلم يعد يزعجنى فى الوجود بعد الأشهر التى تمخض مرورها عن تبرم أبى بالحياة ، وعن تفكيره فى الزواج لم يعد يزعجنى إلامعاملته .

كان فى الخمسين من عمره فى هذا التاريخ ، ولكنه كان كذلك زوبعة طليقة عارمة كل مظهر وكل صغير كبير تقع عليه عيناه فى الدار مبعث لرفع الصوت ومدعاة للشجار حتى أن أختى اضطربت فى تنظيم البيت ، وكادت علة أعصابه تسرى إلى أعصابها ، هذه القلة رائحتها عطنة لا تقوى نفوس الكلاب على الشرب منها ... والطبيخ .. آه .. ما هذا الطعم الغريب الذى أتذوقه ؟! يمضغ ، ثم يسكت ، ثم يعيد المضغ وعيناه لاتطرفان ووجهه جامد الملامح كأنه يتسمع ، ثم يمضغ ثانيا .. ثم يقول آه .. إن الطبيخ مدخن . وتنتهى مشكلة الطعام ويقوم عنه ويحضر طست وإبريق ، فإذا قمت لأصب على يديه الماء نهرنى

ونادى هنية ، وإذا تقدمت هنية زجرها وناداني . ويخطف الصابونة من أعلى مصفاة الطست ، ثم يفحصها بعينيه الغائبتين تحت ظلال جبهته ، ولا يلبث أن يقول : هذه شعرة علقت بالصابون . ويكون جزاء الراكع منا لصب الماء عل اليد الكريمة أن يقذفه فى وجهه بحفنة من الماء .

لم يكن فى البيت امرأة تلم شعث أعصابه وتهذب ما ند من أفعاله لأنه كما قلت لك سريع الاستجابة إلى ما يقلن ، حريص على ألا يفسد ما بينه وبينهن فتفسد حياته كلها .. فقد كانت المرأة هى الشئ العامر فى حياته الخراب .

ويمر عام بسرائه وضرائه وكثرة انزوائى أنا وأختى من وجه أبى توقياً لما يلفق من أسباب الشتائم ورفع الصوت حتى أحسسنا كأنه موكل بنا من قبل قوم يبغضوننا وأنه غير والدنا .

مر العام وبدأت أذهب إلى مدرسة القرية للمرة الأولى ، فما لبثت أن أحببتها وتعلقت بها حتى كنت أعجب لصبيان يحملهم آباؤهم للذهاب إليها حملا وهم يبكون . ولعل سببا من أسباب تمردهم على المدرسة أن هنالك فى بيوتهم أمهات يدللنهم فبكوا وتمردوا ، أما أنا فقد كنت أذهب إلى المدرسة وأنا جد سعيد وأعود منها إلى البيت وأنا جد شقى أتمنى ألا أعود ، لأنه ليس فى البيت من يدللنى . ولعله من حسن حظى أن الله لم يخلقنى غبياً ، وأنه كذلك قد من على بسحنة ليست جميلة ، ولكنها كانت بين الصبيان تعتبر من تلك السحن التى

لاتعرف أين الجاذبية من بين أجزائها : أهى فى العينين المستديرتين الصافيتين اللتين تشبهان النرجسة الصغيرة ؟ أهى فى السمرة الصحيحة السقيمة معاً ، والهادئة المتحفزة معاً؟ أم هى فى هذا جميعه ، وبخاصة فى الفم الدقيق المنطبق فى ثقة وحرص وبراءة وخوف ؟!

وشفع لى عقلى وخلقى أن أكون وأنا فى المدرسة قريباً من قلوب مدرسى وإخوانى فاشتهرت بينهم منذ الأيام الأولى برقة الطبع وحساسة الأعصاب ، واستوجب هذا من ناحيتى أننى كنت أصدع بأوامرهم فلم أر من أحدهم عنتاً ولاشدة ، فأحببت المدرسة .

وهكذا مكنت لى الأقدار التى قلبت بى الزورق أن أركبه وهو مقلوب فيسرت لى سبيل النجاة فلم أكن من الهالكين . ومنذ دخلت المدرسة فى نظام حياتى انقسمت الأربع والعشرون ساعة إلى أقسام ثلاثة ، أحبها إلى نفسى ساعات المدرسة ، وأبغضها إليها تلك التى يقضيها أبى بيننا بعد عودته من مكتبه ، ثم ساعات الليل حيث أهجع أنا وهنية ، ولم تكن هذه الأوقات سعادة خالصة ولا شقاء غير مشوب، وإنما كانت قسمة غير منتظمة بين السعادة والشقاء .

ماذا لو تزوج أبى وأراحنا من هذا العناء ؟! لقد عرفت أن زواجه شر لأنه لم يكن يذكره إلا فى مواطن التهديد . وقد أباحت له أعصابه التالفة أن يهدد بنية وغلاماً ، وينفس بإيذائهما عن نفسه كما يضرب الأطفال الأرض بأقدامهم إذا أحنقهم شىء . على أن بوادر هذا الشر

بدأت تلوح على أفق حياتنا بزيارة امرأة تدعى أم مرزوق لأنها كانت رسول الزواج فى قريتنا والقرى المجاورة . امرأة خطت إلى الستين وجمعت بين أناس باسم كلمة الله ، ولكن على وجهها ريبة لكثرة ما خدعت به من أزواج وزوجات . ولم يكن فى حركاتها ولانبراتها توقر السن ولكن أبى كان يرحب بها . ولطالما تمنيت أن تطول زيارات هذه المرأة ولو أنها تضايق أختى لأننى كنت أتنقل فى البيت بكل حرية، وقد أغنى وأقلد أصوات الديكة وأصوات بعض الحيوان فلا يغضب أبى الغضوب ، بل كنت أرى فى أكثر الأحيان على شفتيه ابتسامة ملازمة .

ثم وقع الشر نفسه بعد انقضاء عام واحد من وفاة أمى . كانت الليلة ليلة جمعة وكنا فى أخريات الخريف ، وقد ظهر أبى فى ذلك اليوم بجبة وقفطان جديدين ، وقضى ساعة الأصيل كلها يتأنق فى لفة العمامة فنقضها وبناها مائتى مرة . ولما تقدمت خطا الليل دخل بيتنا بعض رجال وبعض نسوة كانت بينهم زوجة أبى ولكننى لم أعرف شخصها . وسهر الضيوف وسهر معهم أبى وأختى ، أما أنا فقد أويت إلى الفراش وحدى لأنى كنت متعباً من كثرة جريى طول النهار .

ونهضت مبكرا فى صباح اليوم التالى ، وأنا أشعر بشوق شديد إلى أن أرى أحد الزوجين وبخاصة أبى الذى خيل إلى أننى لم أره منذ عام كامل . ولكن ضحا ذلك اليوم ارتفع ثم حلقت شمسه فى كبد السماء ولم يظهر لأحدهما أثر .

ثم ظهرت بعد ذلك زوجة أبى فى بياض أيامنا وسواد ليالينا إلى أمد طويل . لشد ماعجبت وأنا صغير من أنها كانت صغيرة لأن خيالى رسمها لى امرأة فى صورة أمى كما قلت لك ، فإذا بها امرأة فى صورة أختى لا تزيد عنها إلا قليلا ، فأحسست أنه وضع غير طبيعى ، ولكننى لم أستطع له إذ ذلك تعليلا .

رأيتها بيضاء تدنو قليلا إلى الصفرة ، ويلمع على جبينها الضيق شعر أسود مموج متكسر كصفحة الرمل انحسرت عنه الأمواج وقد أضاء فى منتصفه فرق ناصع ، أما عيناها فإن بهما آثار رمد قديم كما يبدو جيداً من انكسارهما فى الشمس ، أما عرنين أنفها فكان كبيرا شيئا ما ومع ذلك فإنها لم تكن تخلو من ملاحة .

وانقضت أيام قلائل على زفاف هذين العروسين . رجل أتلف عليه أعصابه نظام حياته فى الخارج ، فلما هوى تعلق بأذيال امرأة تسليه كمن يشرب الخمر أو يبتلع قطعة من الأفيون ، وامرأة من بيت أشد فقرا من بيتنا ، باعها أبواها لمن هو أعلى منها سناً ظناً أن ماله سيسعدها ، وتقديرا أن أبى بالنسبة إلى بنتهما خير من عريس شاب من طبقة أبيها وإخوتها ، ونسيا أن امرأة فى العشرين ورجلا فى الخمسين، تقوم بين قلبيهما وجسميهما هوة سحيقة وإن ضمهما فراش واحد .

لقد فهمت اليوم المعنى الذى كان يقصده أبى بوعيده ، فهمت تماما معنى زوجة الأب بعد انقضاء أيام من حلولها بيتنا ، يوم التقى ناظرانا فرأيت فى عينيها بريق غير الذى يلمع فى عيون الأمهات خفت منه



وأنا فى عمر خلا تقريباً من التجارب . ثم أدركت معنى زوجة الأب من طريقة معاملتها لأختى : لا شكر على الإحسان وعلى التقصير عقاب قد يكون نظرة وقد يكون كلمة ولكنه لايحتمل على كل حال . ثم مضت الشهور فرأينا أبى فى كفها سيفا مسلطا على رقابنا . لم يعد يسب ولايشتم ولا يقذف أحدنا فى وجهه بحفنة من ماء كما كان يفعل ، بل أصبح عقابه لطماً ولكماً أو حرماناً من توافه تتشهاها النفوس .

كانت حجرة الاستقبال التى تقع فى مدخل الباب لا تفتح إلا نادرا لقلة من يزور أبى من رجال ، لكنه بعد زواجه السعيد كثرت أضيافه من أصهاره وأقرباء أصهاره ، وكانت زوجة أبى تلقى الوافدين وتبالغ من إكرامهم والحفاوة بهم ، لتعلن لهم عن السعادة والتوفيق اللذين كتبهما الله فى بيت الزوجية .

وبالغت فيما أخذت فيه حتى انتهى بها أمرها إلى الإسراف ، وحتى كان إسرافها على حساب حاجاتى أنا وأختى . كانت أشبه بالظمآن يشرب الماء المثلوج فلا يزداد ظمأه إلا أواراً ، ولعل التربة الجديبة التى خرجت منها إلى خصب نوعى كانت العلة الأولى فيما نابها . وقد يكون سلوك أبى حيالها هو العلة الأولى والأخيرة ، فقد كان أشبه شىء بفريسة الأخطبوط ضلت بين شعبه الكثيرة .

كنا من قبل لا نراه كثيراً ، لأن بعض الأعمال تؤخره فى مدرسته، أو لأنه يغلق حجرته عليه ويستعين بمفكرته التى يدون فيها أخطاء

المدرسين على كتابة شكاية لمجلس المديرية ، أو لأنه مشغول فى قضية صلح أو قضية تحقيق ، أو لأنه انفرد بنفسه فى السكون العميق ، ليدير أمره عقب اكتشافه خيانة صديق ـ كنا لا نراه من قبل لبعض هذا أو لهذا كله ، ونحن اليوم لا نراه كثيرا ولكن لسبب جديد ، وهو أنه اختصر دنياه الواسعة فركزها فى عدة أمتار مربعة... فى حجرة زوجته التى كان من الممكن جداً أن تكون إحدى بناته لو أن الموت لم يضطهد ذريته فترة طويلة حتى عددت أنا وأختى الثمالة التى بقيت بعد شراب الموت . أجل أصبحت هذه الحجرة هى الشق المضىء من عالمه المظلم الواسع ، وإنك حين تغاضى عن إخفاقه فى اكتساب الأصدقاء لتعذره العذر كله فى ضجره من العالم ، فوجه الصداقة المخلصة هو البسمة المشرقة على شفة الوجود والحضن الغريض الطرى الحنون الذى يرتمى فيه الناس بعد أن يفقدوا أصل وجودهم ، أعنى حنان الأبوين .

لست أجزم أنه كان حريصاً على أن يتزوج مثل هذه الشابة ، ولكن هكذا اتفق له . لعل لبقية جمالها التى نجت من براثن الفقر دخلا فى تورطه فى هذه الزيجة ، ثم كان ... وتركزت الدنيا كما قلت فى عدة أمتار مربعة . ثم أحس عظم المسئولية الملقاة على عاتق خمسين سنة والتى تطالب بها سن عشرين ، فقدر المسئولية ونجح أو فشل فهذا بالطبع لا يعنينا ، ولكن حرصه على النجاح كان على حساب صحته، وتعويضه للفشل كان على حساب ماليته ، أو كان بالأحرى على حساب

حاجاتى أنا وأختى .

بدأنا نحس تغيراً فى نظام المعيشة وشعرت فى كثير من الأحيان بقرم شديد إلى اللحم لم أستطع مقاومته . ولم يغننى إزاء تنازل هنية لى عن نصيبهامنه وإن لم يكن كله فمعظمه ، حتى بدا صدرها الناهد المستوفز فى ذبول يقرب أن يكون انمساحاً، وحتى فكرت أنا فى مكان ألقى فيه ما عسى أن تشتهيه نفسى فلم أجده إلا فى بيت خالتى . ولكن أين هو ؟! إنه على مسير نصف ساعة من القرية فى الطرق الترية المتعرجة التى كثيرا ما تغمرها مياه الترع بين المزارع . ولكن الغنيمة أعظم مما يلاقى فى سبيلها . فكنت كلما عضنى التشهى وعجزت عن مقاومة نفسى العزوف وقلبى المتهافت قطعت الطريق من دارنا إلى هناك يدفعنى الجوع ويمسكنى الحياء . وأطرق الباب فيفتح وتتراءى خالتى لعينى صورة مغلوطة من صورة أمى لكن الملامح غير خافية فيها . ثم تقبلنى وتجلسنى وتغيب عنى لتحضر أعز ما فى بيتها، فإذا حضر الطعام أقسمت أننى شبعان ونظراتى تؤكد أننى حانث ، فلا تزال بى خالتى حتى أنال من طعامها ما يكفينى .

أما تصبيرة الغذاء التى يأخذها تلاميذ المدارس الأولية معهم ليجيبوا بها نداء المعدة فى الفسح القصيرة ، فلم يكن نصيبى منها إلا الخبز الجاف وحده ، على حين أن أبناء الموسرين ومن ترعى طفولتهم أمهاتهم كانوا يستصحبون معهم شيئاً من الفطير أو بعضاً من الفاكهة حتى بدا ذلك جيداً فى البقع التى تنتشر حول جيوب جلابيبهم المخططة.

أما جلبابى أنا فقد كان جد نظيف !!

لم يعد أبى يسمع اليوم شكايتي أو شكاية أختى من زوجته كأنه جرب علينا الكذب فى مواقف كثيرة . أما حرمه المصون فما جرب عليها خداعا ولا كذبا . ومن أجل ذلك كانت أختى تحتسب كل قضية عند الله فلا تجادل زوجة أبى ولا تخالفها ولا تحاورها فى شىء . وكل مهمتها أن تقضى العمل الذى تكلفه ثم تأوى إلى الساحة القبلية للدار حيث تبتعد كثيراً عن ربة البيت فتجنب نفسها كل عناء .

وقلت مخالفة أبى للناس فى الخارج وكادت شكاسته تتقلص عن محيط معاشريه كأنما رأى أن كل رضا وسخط وكل إسعاد وإشقاء وكل تدبير وتفكير يعد تبذيراً محرماً إذا أنفق فى غير دنياه الحقيقية ، أعنى بضعة الأمتار المربعة ... فى حجرة زوجته ، تلك النافذة التى أصبح لا يرى الدنيا إلا منها ، والتى أصبحت أنا وأختى إطاراً لها ، لكنه إطار يستغنى عنه بسهولة . أما أقرباؤه فكانوا المصاريع الخشبية ، وكانوا الزجاج .. كانوا شيئاً من صميم النافذة ، لذلك حفلت بهم غرفة الانتظار فى معظم الليالى . وما مر عام وبعض عام حتى كان محفوظ ابن عم سيدة دارنا والخال غير المباشر لمن عسى أن يكون أخى لأبى ــ كان أدنى أقربائى إلى قلب الوالد .

كان محفوظ فى سن ابنة عمه أو يزيد عليها عامين ، قرويا من أولئك الذين لم يهتد المثالون إلى شبيهه ليتخذوه أنموذجاً لقروى شاب . لوحته شمس الريف فمنحته السمرة المصرية الشهية التى أراها أحلى

من بياض تماثيل (روما) . سمرة خشنة فقيرة ، لكنه يجرى فى أديمها دم الشباب ودم السلامة ، ضامر كالسيف ، رشيق كعود الخيزران الذى لا يفارق يمينه والذى يلوح به فى الهواء وهو سائر بحركة توائم صرير حذائه ذى الرقبة الطويلة .. كان يختال فى جلبابه الفضفاض الطويل الواسع الكمين كأن وفرة الشباب قد أنسته مرافق حياته الناقصة ، أو كأن رأسه ذلك الضيق المحدود تفلسف فرسم للسعادة صورة غريبة جداً. ولكنه مقتنع بها كالصورة التى كنا نرسمها للحصان فى بدء حياة المدرسة ونحن أطفال فنخطط له أربع قوائم على أبعاد متساوية مضبوطة ثم ننظر إليه ونحن معتقدون أنه حصان ما فى ذلك شك . وكذلك كان محفوظ صورة كاملة للشباب الحقيقى وصورة واضحة للسعادة النسبية .

كان قريبا إلى قلب ابنة عمه . لقد نشآ كما قالت لأبى يوما فى بيت واحد ، وقضيا أيام اللعب معاً لا يفترقان فهما أخوان إن لم يكونا شقيقين فهما كالشقيقين . وهل هناك من بأس إذا تردد الأخ على منزل أخته ، وإذا تفضل فقام ببعض شئون بيتها الخارجية إذا تخلف زوجها فى مدرسته خصوصا فى أيام الشتاء القصيرة النهار والتى كثيرا ما يعوقه فيها المطر . لا بأس فى هذا وأنها مروءة منه كذلك ، فزوج أخته اليوم فى الثانية والخمسين بعد أن مضى على زواجه عامان . نعم لقد مضى على زواج أبى عامان فبدا عليه وقار السن فجأة حتى إن شعره ابيض دفعة واحدة كأنما كان سواده مستعارا فنصل . وبدأت

شيخوخته ، ثم جرت إلى ختامها بعد بدئها بسرعة ، فلم تكن من ذلك النوع الذى يبطىء فى خطاه والذى يغيض معه ماء الحياة رويدا رويدا بل كان أبى فى ذلك الطور كالذبالة القوية يغزوها إعصار وهى فى النافذة .

لقد استهلكت عضلاته كأنما سطا عليها وحش فنهشها ، وبدا للعين أطول من ذى قبل . وصار بادى النحافة إلى حد أنه إذا جلس على الكرسى ووضع رجلا على أخرى خلت أن رجله التى فى الهواء عصا يشير بها من تحت أذيال قفطانه . وحتى الحزام الذى يشده على وسطه كان من الممكن أن يلفه عليه مرتين .

أما صدره فكان قفصا ناتئا يشرق من حوله كتفان عريضان يغوص بينهما عنقه الذى ظهر فى أعلى الصدر كأنه أسطوانة تتدلى فى صندوق .

كنت أسائل نفس إذ ذاك وأنا أخطو إلى الثامنة من عمرى : لم استحالت حال أبى هكذا ، ولم يجف هكذا ولم يتغير ؟! ولكننى لا أحظى بجواب ، فأرتد إلى هنية أسائلها فى براءة ولهفة كأننى أحسست بالغريزة أن خطرا يتهدد أبى ، فما يكون جواب أختى إلا أن تقول وهى منكفئة الوجه مسبلة الأهداب : لا شىء ياحسنى ... إنه تعب فى المدرسة .

ـ ٢ ـ

ثم أدركت مع الرجولة معنى ماكان من هذا الذبول ...

ورثيت لأبى ، ولكن بعد فوات الأوان بكثير !!

ما أشبه هؤلاء الشيوخ مع زوجاتهم من الفتيات فى تهافتهم عليهن واستهلاكهن لهم بالذباب الذى يهوى على نوع من الأزهار يسميه النباتيون « آكل الحشرات » . تجتذب الزهرة منه النحلة أو الذبابة ، فتشغلها طول النهار بعصارتها الحلوة وأريجها الفواح ، حتى إذا ماغابت الشمس جمعت الزهرة أطراف أوراقها على الحشرة فحبستها فلا تستطيع خروجا ، وهناك فى الظلام تفرز عصارة تذيب جسم ماحبسته ليكون غذاء لها .

ولقد كان أبى ـ واأسفاه ـ رجلا من هؤلاء الذين تغذت بهم زوجاتهم !!

على أنه لم يمض على زواجه ثلاث سنوات حتى بلغت من العمر تسعا ، وحتى أدركت أننى فقدت أمى حقيقة ، وكاد القلب يقيم لها مأتما وإن مضى عليها فى التراب أربعة أعوام ، وكان ذلك لحادثتين وقعتا فى عام واحد :

أما الحادثة الأولى : فهى أن زوجة أبى أنجبت غلاما . ولاتسل عن الفرح الذى غمر والديه ، فقد جاء سندا لأمه الكريمة وضمانا لها بين يدى زوج كل مناه فى حياته الآن أن تخمد أنفاسه ورأسه الذى قال عنه أنه جمجمة أقفلها الله على جمرة متوهجة نفاذة ، ورأسه هذا مستريح على صدر زوجته الحبيب حتى تفيض الروح . جاء الوليد سندا لأمه وقرة لعين أبيه ! وكنت أراه فى كثير من الأوقات يغنى له ببعض الأغانى التى حفظها من زوجته وهو يهدهده فيداعب الأم ويفرح الوليد فى وقت معا . وكان يتوقف عن الغناء كلما مضى فيه شوطا لتلقنه زوجته ماغاب عن ذهنه الفطن وأنفاسها مبهورة من الضحك . وهنا تغمرأبى موجة من السعادة فيقهقه حتى يحتقن الدم فى وجهه الذابل . كنت أرى مثل هذا المشهد فيشرد فكرى إلى أيام خلت لم يسجلها فكرى ، ترى هل كان يقف منى ومن أمى مثل هذا الموقف ؟! إن كان فياليتنى ماكبرت ، وياليتها ما ماتت !!

وتجرى هذه التيارات الحارة فى رأسى وأنا أرقبهم من عتبة الباب وكتفى مستندة إلى مصراعه الثابت وجسمى مائل فى نصفه المفتوح . ولعل خطرات نفسى كانت تبين على وجهى ، فإننى ما كنت ألبث أن أرى عينى سيدة دارنا الكسيرتين تتجهان إلى ثم تسددان نظرة لو كانت النظرات ترسم لرسمتها لك ، لأننى أعرفها جيدا من طول ماصافحت وجهى !! وقبل أن تسترد نظرتها أفارق مكانى لا ألوى على شىء .

أما أبى ... فلاتسل عنه .. لكأنه خلق بلا عينين .

وأما الحادثة الأخرى : فلقد كانت أهم من الحادثة الأولى ..

كنت قبلها أسكن دنيا نصفها خرب ونصفها مأهول ... أما بعدها فلقد أصبحت دنياى كلها خرابا .

لاتظنني مبالغا فى شيء ، فإن الذى أقوله حق لامرية فيه ... إن هنية ستتزوج ، أعنى أختى ... أعنى الطبعة الثانية المختصرة من كتاب الحنان الخالد ... من الأمومة !!

وما علمت هذا النبأ إلا بغتة كإنه نعى أتى لحبيب بعيد ، ولأن زواج العذارى فى الريف فى ذلك الزمان كان يحاط بكثيرمن الكتمان حتى يتم كل شيء . ولم أجزع أول الأمر ، لأننى لم أقدر موقفى تماما إلا بعد أن فارقتنى ، وكنت فى الأيام التى سبقت وداعها لى مشغولا بمايدب فى الدار من حركة تجهيز ومُمنيا نفسى بسهرة سعيدة وأكلات طيبات فى ليلة الزفاف . وقد كان ... ونلت ماتمنيت من سهر وطعام ، وشهدت فرحا كان بداية لأحزانى .

آه ... لابد أن أعيد عليك ما سبق أن قلته لك عن طفولتى من أننى أذكرها الآن وأنا فى ريق شبابى وريعان صباى ، فتلفحنى الحسرة على غلام هوصورة منى لكنها صغرت عدة مرات فأكاد أحتضنه وأنا أرثى له . كنت أنام أنا وهنية فى إحدى الحجرات الشتوية التى تكون فى الشق الجنوبى من دارنا . وهى ثلاث متجاورات تفتح أبوابها جميعا نحو الشمال على خط واحد ، وأمامها الساحة القبلية التى

كانت مأوى لأختى وملاذا من هجمات زوجة أبى ، وفى هذه الساحة نخلتان تفصل بينهما مسافة تقرب من ستة أمتار يمتد فيها حبل الغسيل بين النخلتين . وعند أقدام الغربية منهما يقوم الزير الذى لا يخلو من الماء فى الصيف والشتاء وعلى مقربة من هذه النخلة نحو الغرب ترى ممرا ضيقا مستقيما يتجه نحو الشمال فيصل بك إلى الساحة الشمالية للبيت التى تراها مربعة على التقريب والتى تقوم بها حجرات أربع : اثنتان فى الشمال ، واثنتان فى الجنوب .

وفى هذه الدار قضيت الأيام التى حدثتك عن شطر منها والتى سأحدثك عن شطرها الآخر . وفى إحدى حجراتها الشتوية قضيت الليلة الأخيرة أنا وأختى ، أعنى الليلة التى ستكون هى بعدها فى أحضان زوجها والتى سأكون أنا بعدها فى أحضان الوحدة . وتكورت بجانبها على الحشية كما أفعل فى كل مساء ، فلم تسحب الغطاء على وجهينا فى هذه الليلة . وامتدت يدها تتحسس رأسى فى حنو ورفق شديد ، ولم يسارع النوم إلى عينى ، كأن وحشة باكرة سرت فى صدرى ، وأملت رأسى إلى الوراء قليلا وأنا نائم على جنبى ووجهى تجاه وجهها ، وأخذت أحملق نحو المصباح الصغير الذى يرسل نورا أحمر مخنوقا من كوة الحائط . ولم يكلم أحدنا أخاه ... يد من يديها ملقاة على جنبى ويدها الأخرى تجوس خلال شعرى ، وعيناى أنا إلى المصباح وأجفانى ترتجف فى ارتفاع وانخفاض . وطال حبل الصمت ولم ينم أحدنا ، فأحسست أن جو الحجرة حار ، كأن الوقود الذى أشعل فى

التنور كان كثيرا فى هذه الليلة وحجرات الشتاء فى قرى الريف خلو من النوافذ . قلت لهنية : الجو حار .. ألاتحسين ذلك ؟ .. افتحى الباب قليلا حتى يدخل الهواء .

ـ قم أنت فافتحه .

ـ أخاف ... لا أستطيع ... حفيف النخل فى الظلام ... وصوت الرياح و ... و ...

نشهقت فى جزع واستنكار :

ـ لا تقل هذا ... أما زلت تخاف ... إذن فمن ذا الذى .. آه ... لهف نفسى ... اسمع ياحسنى ، ينبغى أن تسمع إلى جيدا وتحفظ ما أقوله لك كسور القرآن التى تحفظها فى المدرسة .

فدق قلبى فى صدرى كما يرفرف العصفور الصغير ، وللمرة الأولى أحسست معنى جديدا لم أستطع أن أسميه ، وعرفت فيما بعد أنه المسئولية . قالت :

ـ فى مثل هذا الوقت من الليلة المقبلة ستكون وحدك ياحسنى أتفهم ؟ ... ثم سكتتت قليلا وبقيت أنا متلهفا إلى سماع بقية الحديث، ولكنها لم تتكلم بل سحبت نفسها من تحت غطائنا المشترك فى هدوء مذهول ، وقامت إلى المصباح المتهافت المخنوق ونفخت تجاهه فانطفأ ثم زعمت وهى تتحسس مضجعها إلى جوارى فى الظلام أنه على وشك أن ينطفىء . ورقدت... وسمعتها تلتقط أنفاسها بعسر نوعى ، ثم وصلت ماانقطع من حديثها : ستنام وحدك على هذه الحشية . فكن رجلا ...

تخف من شيء ... لست صغيرا ياأخي ... أتسمعني ؟! لاتنس أن لف الغطاء حول جسدك كله قبل أن تنام وأن تحكم إغلاق باب الحجرة عليك ... و ...

ثم انقطع حديثها ثانيا وخلت أنني أسمع بكاء مكتوما فتحسست خدها في الظلام بكفي الصغيرة فألفيته مبللا بالدموع ، فعرفت لماذا أطفأت المصباح .

ـ لماذا تبكين ياهنية؟ .. أهو من أجلي؟!

ـ من أجلك ؟! ... لماذا ؟ ألست رجلا .. إنني تذكرت أمي !

دعنا من هذا ... استمع إلي : أحب زوجة أبيك ... وأخاك الصغير ... ولاتخالف ولاتشاكس فإنني سأكون بعيدة عنك . سأتزوج في البلد الذي فيه مدرسة أبيك ... لقد زارنا خالك واتفق مع والدك أن يكون مال أمك وقفا على تعليمك . اجتهد في مدرستك إن أردت أن تفر من وجه زوجة أبيك . أتفهم ؟

قلت بصوت خافت وقلب واجف ومدمع محبوس :

ـ أجل ... أفهم .

ـ وستحكم إغلاق باب الحجرة عليك حتى لاتبرد ؟

ـ نعم .

ـ وستكون رجلا ؟

ـ نعم .

فأحسست أنفاسها تقترب من وجهي رويداً رويداً ، ثم شفتيها

تهويان إلى فمى بقبلة ثم ربتت كتفى وهى تقول : حسن ... إذن فنم . لكننى مالبثت أن تحسست الطريق إلى وجهها بفمى لأقبل أمى الثانية .. ثم خطفنى النوم من أفكارى .

وقبل مساء اليوم التالى جلجلت فى الدار دقات دفوف ورنات زغاريد ، ولم يبق على انتقال العروس إلى بيت زوجها غير ساعات . كنت مأخوذا بمظاهر أول فرحة رأيتها فى دارنا وكنت أقترب من هنية بين فترة وفترة لأملأ عينى منها قبل بعدها عنى . وكان تخيلى لوقت النوم بعد خروجها يبعث فى القلب حزنا ورهبة . وأعجب مارأيته فى هذه الليلة هو مظاهر الفرح الى أشرق به وجه أم ربيع ، زوجة أبى .

وانفض السامر وركبت هنية إلى حيث تفيض السعادة على قلب غير قلبى . وسكتت الدنيا فجأة ، أو هكذا تخيلتها فى بيتنا على الأقل . وتخلصت أذناى من بقية ما كان يملؤها من غناء وضحك فبدأت تسمع ما حولها بعد أن شغلت عنه . بدأت تسمع وأنا لا أزال فى صحن الدار زفزفة الريح فى أعواد الحطب المكدس على سطوح المنازل وفى ذوائب الشجر الذى يقوم فى حديقة على القرب من منزلنا وبخاصة فى شجرة الجميز العتيقة . وبدأت تسمع كذلك تنادى الأمهات على من تخلف من أولادهن بعد انفضاض الفرح ليناموا فى أحضانهن فقد جن الظلام .

وغاب وجه أختى فلم أعد أرى إلا وجه أم ربيع ووجه الليل ، ووقعت فى جملة من المشكلات ضللت بينها كما تضل الإبرة فى مخزن

التبن .

إننا ندرك مع الأيام ياصديقى أن مشكلات الحياة نسبية محض وليس أدل على ذلك من المشكلات التى كنت أعانيها فى هذه الليلة . بدأت أفكر فى اجتياز الممر الغربى لأصل إلى الباحة القبلية وأعبرمنها إلى حجرتى ، فأحسست أثقالا شديدة ينوء بها صدرى . لأن ذاكرتى طفحت فى هذه اللحظة بما كانت تدخره من حكايات مخيفة فغرقت فى طفحها من فورى . ولكنى عبرت الممر غير مستعين إلاباالله ، واجتزت الساحة القبلية وأصابعى فى أذنى حتى لاأسمع حفيف النخلتين ولاصفير الريح الذى ترك فى نفسى عقدة أزلية . ونظرت إلى باب حجرتى وكان مفتوحا قليلا حتى لا يبرد هواء الليل جوفها الدافىء فرأيت المصباح الصغير يرنو إلى بنظرة محزونة ... كان فى الكوة فى موضع كل ليلة يرسل شعاعا أشد اختناقا من كل مساء مضى لأن زجاجته كانت مغطاة بطبقة من الهباب حبست نصف نوره ...وبدا لى كأنه يسائلنى عن أختى وكأنه يرثى لى بعينه المنكسرة .

ونظرت إلى الحشية التى سأنام فيها وحدى فرأيتها واسعة كرقعة الأرض ، ثم طفقت ألف الغطاء حول بدنى عدة مرات ورقدت على جنبى بحيث تكون عيناى إلى الكوة ويكون المصباح فى تجاهى . وجعلت أحلم وأنا يقظان لكنها أحلام مزعجة لم تخل من حكاية مفزعة سمعتها وأنا فى حلقة الصبيان ، أو من توقع حريق سيشب فى القرية الليلة لأن الأشقياء سينتهزون فرصة نشاط الريح فينتقمون ... آه !! يخيل إلى

أننى كنت طفلا فى صندوق ألقى به فى اليم فتلقفته الأمواج . وأنه لولا عناية الله لقضى على الفزع .

ولم تتحول عيناى عن المصباح ، وكأنما شدت إليه أهدابى ، حتى شهدت احتضاره ، وحتى انطفأ لنفاد زيته وبقى طرف ذبالته يلمع فى الظلام برهة كما تلمع جمرة « السيجارة » فخيل إلى أنها عين شيطان فلم أستطع أن ألقى إليها ببصرى ، هنا ، نقضت ما كنت ابتنيته وحللت لفة الغطاء من حول جسدى فى حركة سريعة مضطربة خائفة ودلك لأتمكن من ستر وجهى ، ولست أعرف متى نمت ؟ غير أن الذى أعرفه هو أننى ما فرحت بوجه صباح فرحي بوجه صباح هذه الليلة ، حين رفعت الغطاء عن وجهى رويدا رويدا فسمعت قطقطة الدجاج ورأيت خيوط النهار تنصب فى ظلمة الحجرة من ثقب المفتاح ومن التفاريج الضيقة بين ألواح الباب !!

***

وخلا وجه أبى لزوجته أم ربيع إن صح أننا كنا نشاركها فيه . وأحسست مع الأيام أننى ضيف فى بيتى ، بل وضيف غير كريم ، وبدأت أشهد تقدما محسوسا فى صحة السيدة وتفتحا كتفتح الأزهار فى وجه أخى « ربيع » الذى أنجبه أبى فى الزمان المجدب . أما صحة والدى فإنها لم تصر إلى أسوأ مما كانت عليه ولم تسر نحو التقدم ... لقد كان كالبئر الوحيدة فى الواحة المعمورة تتزاحم الدلاء دائما على مائها القليل ، فكيف يتقدم ؟.

أما أنا فقد مللت الذهاب إلى دار خالتى وضجرت من قطع المسافة بين القريتين بعد أن غابت عنى هنية ، ولم يعد فى محيطى من يختصنى بغذائه .

ومما زاد أمرى حرجا عندها أننى تخيلت أن زوج خالتى بدأ يضيق بى ، وكان رجلا عملاقا ضخما تلمع الفظاظة فى تضاريس وجهه الغليظ. وقد صادف أنه دخل مرة أو مرتين فرآنى وأنا أطعم فنظر إلى من ذروة قامته وأنا جالس وهو واقف ، نظرة نفذت أشعتها من خلال شاربه الغزير المهوش فجعلتنى أمسك عن المضغ برهة حتى يحول نظرة عنى .

ولم تكن دار أبى حبيبة إلى قلبى لأنها لم تكن مهدا لذكريات سعيدة . لم تكن من تلك الأماكن التى تهفو إليها نفوسنا ونحن كبار فنتمنى أن نراها ونحن بعداء عنها ، حتى إذا دخلناها جاست عيوننا خلال حوائطها وزواياها تفتش فيها عن شىء من آثار الطفولة عسى أن يكون الزمان قد أغفله ، فإذا ماعثرنا على حرف حفرناه أو رسم رسمناه فى شجرة أو جدار منذ كنا فى سنوات تعليمنا الأولى ـ غمرت نفوسنا موجة عظمى من السعادة حتى لكأننا نحن الذين خدعنا الزمن عن أن يمحو هذه الآثار . أجل ، لم تكن دارنا من تلك الأماكن ، بل أصبحت فى نظرى بعد خروج أختى منها إلى منزل الزوجية أشبه شىء بفتحة صغيرة أنظر من خلالها فأرى صورا كريهة فى صندوق دنياى .

من أجل ذلك لم أكن أستقر فيها إلا ريثما آكل أو أؤدى أحد

واجباتى المدرسية . فإذا ما فرغت ـ وسرعان ما أفرغ ـ استقبلت وجه الخلاء وحيدا أو فى ثلة من الرفاق كما يتفق لى ، خصوصا فى ليالى الصيف ... حين يسبح القمر طليقا فى رقعة السماء لايتعثر فى أذيال سحابة وحين يغمرنوره البنفسجى الهادىء أعواد القمح أو دريسه المكدس فى الأجران .

وهبنى غبت عن المنزل عشرين ساعة من أربع وعشرين ... أتظن أن أحدا يطلبنى ؟! لاتظنن ذلك ، فإننى كنت كالشق الأعلى من الرحا إذ يدور على غير محور ، يدور دورانا متخبطا . فإنه ليس لى أم !!

وأصبحت أرى السكن الحقيقى فى ملاعب الغلمان حول البيت ، وصرت على الرغم منى أجوس خلال الحقول وأستقرىء الطرقات وخمائل الشجر البرى فى الأراضى البور على مقربة منا . كنت أشبه شىء بثعالب الحقول فأحببت الطبيعة بمقدارماكرهت المنزل . وكانت أم ربيع تجبرنى على خلع حذائى عقب عودتى من المدرسة حتى لا يبلى من غير أوان ، فأضطر إزاء هذا أن أقوم برحلاتى الإجبارية حافى القدمين حتى استحالت بشرة رجلى إلى شىء عجيب تكسوه فى كثير من المواضع حراشيف كحراشيف السمك لم تستطع النظافة القليلة المختصرة أن تمحوها عنهما .

إن الله الذى أودع فى دمنا طبيعة التجمد حتى يقف النزيف نفسه بنفسه ، وجعل فى السموم ترياقا من السموم ، وخلق فى المحيطات أنواعا من السمك تعمل على إنقاذ الغريق ـ قد جعل فى ظلام مشاكلى

إشعاعا خفيفا من النور يضيء لى بعض الطريق . فلم أهلك تماما ولم أضل فى قفار الإهمال ، بل كنت كصدرالوليد المكشوف ، يؤذيه البرد مرة ومرة ثم يكتسب المناعة فلا يؤذى .

وهكذا بدأت هواجس الظلام تتقلص عن نفسى شيئا فشيئا ، فلم أعد أخاف ولاآرق من العواصف لأنها نذير بشبوب حريق ومعنى هذا أننا نزحف من دفء الحجرات الشتوية إلى الجو البارد المكشوف حتى يخمد الحريق وأننا نستيقظ من النوم على جرى الفلاحين بنعالهم الثقيلة وعلى صفير الخفير ، وهى أشياء تنهار لها أعصابى .

أما بقية بؤس نفسى فقد ألفته مع الزمن : ألفت أن أرى أنواعا من الطعام فى يد أم ربيع ولا أتذوقها ثم لا أفكر فى سرقتها ، ولست أدري لماذا ؟ أو لعل شيئا من ضعف الأعصاب الذى ورثته كان السبب وكثيرا ما يكون الجبن مرقاة إلى الفضيلة ، أعنى أننا لانحتشم إلا حين لانملك .

وألفت أن أشكو المرض فلا يقول لى أحد لا بأس ، وأن أعانى الأرق فلا يسامرنى إنسان . وكم تمنيت فى هذه السن أمنية عجيبة مضحكة فى وقت واحد هى أن تشتد بى علة من العلل أشفى معها على الهلاك لأرى وجه أبى يتدفق بالحنان ولو مرة ، ووجه أم ربيع يجود بالرثاء ولو مرة . وألفت ألا أغير الملابس حتى أعاقب فى المدرسة ، ولا أحمل من النقود التى يحملها التلاميذ إلا النادر وفى أيام المواسم. فأنت ترى بعد هذا أننى لم أكن أرى الحنان إلا فى موضعين بعيدين :

فى قرية خالتى وكثيرا ما ينغصه على زوجها الذى كرهنى شاربه فى الشوارب جميعا ومن كل نوع ، حتى عزمت على أن أعيش ما حييت حليق الشارب ــ وفى بلدة أختى وهى بعيدة عنى . أما الحنان الدائم الذى نصطنعه لأنفسنا والذى لم يخلق معنا فقد كان عزائى وغذائى... وذلك هو حنان الأصدقاء من أندادى . ولقد أثر هذا فى وجرى فى دمى حتى ترانى اليوم أشد الناس اعتزازا بالصداقات .

لاتظن أن حياتنا فى سنواتنا الباكرة غذاء ونوم ودفء .. لا . إننا نعرف الكماليات حتى ونحن فى هذه السن ... نريد الحنان ... نريد الغذاء والنوم والدفء مصحوبا بغناء وهدهدة ، أو ابتسامة محبة . وهل يعد هذا كثيرا على الإنسان وفى الحيوان أنواع لا تأكل حتى تربت وتمسح ؟!

وعودتنى هذه الأيام لذة التأمل ، فلقد كانت أم ربيع تلفق لى كلما دخلت عليها سببا يحملنى على أن أغادر المنزل .. سببا أيا كان تافها أو غير تافه . أما إذا أعوزتها الأسباب فإنها كانت تلجأ إلى خلق جو يدعو إلى العراك ، وإياك أن تظن أنه كان من طرفين فلقد كان عراكا من طرف واحد ، ومن ناحيتها وحدها . كانت تشاتمنى بالأصالة عن نفسها وبالنيابة عنى ... كانت تقول مثلا :

ــ هل جئت من المدرسة ؟ .. أعوذ بالله فقد انطلقت الشياطين من القماقم ... اخلع حذاءك حتى لا يبلى ... وعليك بالخلاء .. شم الهواء.

فإذا ما تلكأت قليلا سمعتها تنوب عنى قائلة :

ـ أظنك تقول إننى أضايقك ... ولو كانت أمك حية ماتحملت ثقلك ... ما بالك تنظر إلى هكذا ؟! .ولكأنك تريد أن تشتمنى ... إذن فمهلا حتى يجىء أبوك .

وما أن يبلغ الجدل حده هذا حتى أكون قد رميت بحذائى فى أقرب مكان وحتى آخذ سمتى إلى الخارج . وهناك تحت شجرة الجميز العتيقة أجلس وحدى ، فقد عودتنى الوحدة لذة التأمل ...

إننى لأذكر مجلسى تحتها فى ذلك الزمن وتقلب نظراتى فى جوانبها ، حتى لكأنه كان بالأمس القريب ، وحتى لكأننى أحس ظلها وهو يغمر جسمى ، وأرى آثار الحجارة على لحاء فروعها ، لكثرة ماغزوناها بها لنسقط ثمرها ونحن على الأرض ، فكأنها آثار كدمات فى بشرة إنسان .

***

هذه نسمات الخريف تكنس بأذيالها الحارات فى الريف . وهذه زوابعه الضعيفة تدوم أحيانا بما يصادفها فى الأرض من ورق وتبن ثم تنحيه أخيرا بجانب الجدران . ويدأ النخيل يعرى من البلح ، والسعف يوسوس شديدا مع نسيم الليل كأنه يذكرنا ببرد الشتاء ، ولم يكن يعنينا فى ذلك الحين ونحن فى العاشرة من أعمارنا أن ينتهى موسم البلح بقدر ما كان يهمنا موسم الزنابير . كنا نطاردها فى كل مكان فنقتل منها ونأسر كأننا كنا نتخلص من شحنة الشر التى فى نفوسنا

بهذه الطريقة . كان يعن لنا أحيانا أن نستل زبانى أحدها ثم نربط رجله في خيط دقيق من خيوط الحياكة ونطلقه ليطير وطرف الخيط فى أيدينا ، فكنت ترى طائفة من الغلمان على الطريق رافعين رءوسهم إلى أعلى وفى كل يد منهم خيط ، وهم يرقبون فى شغف ولذة سربا من الزنابير يطن فى الجو وهو أسير أيديهم . كنت فى الساحة القبلية من دارنا فى هذا الوقت الذى قل فيه البلح فقلت الزنابير . وصادف أننى رأيت أحدها ، فاستطرت فرحا كأننى رأيت فاكهة فى غير موسم ، وجعلت أرمقه بشوق متحينا فرصة أصطاده فيها . وأخذ يعلو ويهبط ويقع ثم يطير وأنا أحبو وراءه على يدى ورجلى ، والقلنسوه فى يدى لأغطيه بها متى أمكن ، وخيل إلى أن الماكر يراوغنى ، فاشتد عزمى وتصميمى وواصلت حبوى أخاتله وأخدعه . ولست أدرى كم مترا قطعتها وراءه ، ولاكم مرة وقفت وركعت وحبوت ، لكننى أذكر تماما أننى كنت أحبس أنفاسى حتى لا يسمعها الصيد فيفر منى . وأخيرا رأيته يسعى على الأرض مطمئنا ، وطال سعيه أكثر من أى مرة مضت فهجمت وغطيته بقنسوتى ، ثم تقدمت إليه لآخذه ولأعتدل واقفا فرأيتنى فى مكان ما كنت أتوقع أن أرى نفسى فيه . رأيتنى فى مدخل حجرة الانتظار التى تقع فى شمال الباحة الشمالية والتى يفتح بابها بجوار مدخل البيت . ورأيتنى أواجه منظرا عجبا وقفت إزاءه مذهولا مفتوح الفم سادر العينين وقد جمعت أطراف قلنسوتى على صيدى الذى كان يطن طنينا مذعورا غليظا .

كنت واقفا وكأننى مقيد أتمنى أن أسير فلاتحملنى مفاصلى . وكانت نوافذ الحجرة مغلقة لتمنع نسمات الخريف المترية أن تنفذ إلى الداخل ، وهناك على كنبة يكسوها غطاء أبيض مخرق رأيت زوجة أبى وابن عمها « محفوظ » غائبين فى قبلة لم تكن خاطفة فاستطعت أن أدرك ماكانا يفعلان . كان ظهره إلى ناحية الباب وكانت هى مواجهة له ، فرأيت وجهها أو رأيت منه ما أمكن أن يظهر من وراء وجهه . ورأيت ذراعها البضة البيضاء التى لم يكن كمها يغطى إلا نصفها وهى على كتفه المواجه لموقفى . كان رأسها مائلا إلى الوراء ، وكان وجهها بين كفيه ، فلما أحسا بى اعتدلا فى جلستهما . ورأيتها تعيد منديل رأسها إلى موضعه من جبينها ، وكان قد انحسر إلى الوراء حتى غطى نصف شعرها من خلف . وجعلت يداها تفعلان هذا وشفتاها تتحركان ولكننى لم أسمع كلاما ، ثم استدار هو نحوى فرأيت صفرة كالحة تمشى فى لونه الأسمر . ربما كان كل ما رأيته وهما ، إلاصميم الحادثة ، فإنه كان يقبلها بلا شك . وأدركت من فورى أننى إزاء موقف غير طبيعى ، وتأكدت من ذلك تماما حين رأيتها تهش نحوى وتبتسم ثم تقوم لتربت كتفى وتقبلنى للمرة الأولى !! وتأخذ بيدى الخالية وتسير بى نحو مخدعها وتفتح الدرج الأسفل من الصوان لتخرج لى من بواكير الفاكهة برتقالتين . ولست أدرى لم بكيت فى هذه اللحظة ؟! ، ولعل الذى أبكانى أنى رأيت حنانا كاذبا ذكرنى بما يكون للناس من حنان صادق ...بكيت حتى أفلت الصيد من قلنسوتى وحتى كانت المرئيات تحتجب

وراء دموعى . ثم تملصت من بين يديها وصرت أعدو تاركا لها برتقالتيها حتى إذا ما استقر بى المجلس تحت شجرة الجميز العتيقة فى المكان المنحرف عن الطريق والذى يشمله الهدوء ، أحسست أننى إزاء شيئين يستحقان الرثاء والأسف : موقف زوجة أبى ، وفرار الزنبار !! .

آه ... لسنا يا صديق إلا ثمرة لعدة تجارب ونتيجة لعدة مشاهد تختبىء داخلنا إبان سنواتنا الأولى ، ثم تحركنا من حيث لانشعر فنندفع بها كما يندفع « البالون » بالغاز . وإنك سترى أثر هذه الحادثة فى نفسى عندما أعرض لأحداث شبابى .

ولم أر وجه أم ربيع بعد الذى كان إلا ضحا اليوم التالى ، على أنها واصلت توددها نحوى فلم أزدد إلا جفوة وشراسة فانقلبت إلى ما كانت عليه من قسوة بل أشد وأضرى كأنها أرادت أن تظهرلى أننى لم أقف منها على سر خطير . واختفى ابن عمها عن أفقنا عدة أيام ثم عاد ، ورجعت المياه إلى مجاريها !! واشتد بى الحنق وأحسست نار العداوة للمرة الأولى فى حياتى وكنت أرى أبى فتختلج أطرافى وتضطرب شفتى السفلى لأن رغبة حارة تعتمل فى نفسى وأريد أن أتكلم ولكننى كنت فى موقفى أشبه بمن يتحين منه غفلة ليطعنه بسكين . كانت حالى تئول إلى اختلال كلما رأيته . ولو كان أبى من الأذكياء كما ادعى ، أو أنه كان مدرسا فاضلا استقرأ وجوه التلاميذ نيفا وثلاثين عاما ، ما خفيت عليه ملامحى الحائرة وقسماتى المتكلمة وعيناى اللتان تكاد الدموع تطفر منهما . لكنه كان عنى فى شغل



رأيت زوجة أبى وابن عمها « محفوظ » غائبين فى قبلة

شاغل ، بمحاسن زوجته ومناغاه وليده الصغير .

واتفق ذات مساء أن عدت إلى بيتنا من الخارج فرأيت حجرة الانتظار مفتوحة الباب ، ورأيت فى ضوء المصباح الموقد وأنا واقف فى الباحة ثلاثة شخوص يجلسون على أريكة واحدة يشربون الشاى ويتبادلون الأفاكيه . كان أبى فى الوسط وإلى يمينه محفوظ وزوجته إلى يساره ، كأنها كانت فى ناحية القلب !!

ووقفت أنقل بينهم طرفى أراهم ولايروننى . وأحسست فجأة أننى فى هذه اللحظة ، أحبه حبا لم أشعر به من قبل ، وأحسست حقدا شديدا جدا أشد من أى وقت مضى بالنسبة إلى محفوظ . وخفق قلبى خفقانا متداركا حتى كدت أسمع خفقاته ، ولمع ذهنى بفكرة خففت من نار حقدى على خال « ربيع » وهى أننى أحدث أبى بما رأيته والمتهمان فى جلسة واحدة .

كنت مدفوعا بما لا تستطيع أن تسميه ، بيد أننى كنت كالشراع الذى ملأته الريح فلابد له من أن يتحرك . وحدث أننى تحركت فطرقت باب الحجرة عليهم طرقة واحدة خفيفة كما علمونى فى المدرسة ثم دخلت . وكانت غاية أمرى أننى وقفت فى وسط الحجرة ، ثم تسمرت قدماى كأننى إحدى المناضد المنصوبة . وطفقت عيناى تنتقلان بين الجالسين فى حقد وعزم وخوف وخجل حتى لحظت أن وجه زوجة أبى تنكر وتنمر وابتدأ أبى يفيق من نشوة الحديث فيلحظ موقفى ويرى تغير وجهى فيقول : بسم الله الرحمن الرحيم .. عجيب أمر هذا الغلام

الليلة ... ما بك ياحسنى . !

وأخذت نفسا طويلا كأننى سأغوص تحت الماء ، وهممت أن أتكلم ولكننى لم أستطع . كان هناك زوجان من العيون عن يمين أبى وشماله تقدح بالشرر وتنظر إلى بالوعيد الصامت فجمدت الكلمات على طرف لسانى . ومصمصت زوجة أبى بشفتيها تعجبا واستنكارا لتوحى إلى أبى بأنه يجب أن يغضب ، فيغضب ، وصاح فىّ بأعلى صوته : أيها المغفل ... إن على وجهك كلاما ، ماذا تريد أن تقول ؟.

وبدا على وجهه أنه سيبطش بى إن لم أسارع فأقول شيئا ؟ وأخيرا وفقنى الله وهدانى إلى أن أقول : لا شىء يا أبى ... إننى أحس مغصا . فقالت أم ربيع : خلنا أن حريقا يلتهم القرية ونحن لاندرى !! .

وضحك محفوظ ضحكة خرج نصفها من أنفه ، فقضوا بذلك على ما عسى أن يكون قد بقى من تصميمى . ثم سمعت أبى يقول وهو ملق بكل خواطره نحو نجله الصغير فى حجره قبل أن يميل عليه ليقبله :

ـ لا تنس أن تأخذ مسهلا يوم الجمعة .

وطغت قبلته لوليده على النصف الثانى من كلمته الأخيرة لأنه كان متعجلا أن يلثم فمه الصغير . على حين رفعت زوجة أبى عقيرتها قائلة لتزحزحنى عن موقفى : عشاؤك فى حجرتك ... كل ونم . فاجتزت ساحة الدار المعتمة ، ودخلت الغرفة وحملقت فى المصباح الصغير قليلا وأنا أضطجع فى فراشى ، وما هى إلا برهة حتى رأيت

أبى إلى جوارى ، وحتى رأيتني أطفىء الجمرة التى فى صدرى بأن قصصت عليه كل شىء وهو يؤمن على كلماتى بهزات من رأسه المصدق . وفرغت من قصتى معه فأحسست أننى ظمآن فقمت لأشرب ، فإذا بى وحيد فى فراش نومى لا يؤنسنى إلا المصباح المخنوق ، فدفعت الغطاء عني وقمت لأفتش عن القلة .

ـ ٣ ـ

وأنفقت فى المحاولة التى قصصتها عليك كل ما ادخرته من عزم وتصميم . ولذلك لم أجترىء بعد إخفاقى على أن أعاود التجربة مرة أخرى فأقول لأبى شيئا .

على أنك قد تسائل نفسك وأنت جد حيران : ألم يحس هذا الزوج مرة أنه مخدوع ؟! ألم يشك ساعة واحدة على الأقل ؟! .

وإن أبى فى محنته تلك ليمثل طائفة من الرجال انحرفت زوجاتهم عن الجادة لسبب من الأسباب ، وقليلا ما تجد فى هذه الطائفة من يفطن إلى أنه مخدوع . ويحدث فى قليل من الأحيان أن تغلب الوساوس أحدهم فيتخيل زلة زوجية ولكن فى أدنى درجات الزلل كأن يفرض أن قلبها هفا مرة نحو إنسان غيره ولكن من بعد ، وبدون اتصال ... مجرد أمنية لاأكثر ولاأقل .

ويفكر فى الموضوع فيلقيه سهلا يسيرا ويعتبره قضية محلولة فيعفو عنها ! .. وأما الذى يثق منهم فى امرأته الثقة المطلقة فهو كالأبخر ينشق له الزحام لنتن رائحته انشقاق البحربعصا موسى ، وهو مع ذلك لا يشم نفسه .

وعلمت هنية بنجاحى فى الابتدائية هذا العام ، وزففت إليها

البشري بنفسي في بيتها فمالت علي تقبلني في سرور وشكر لله ، وخيل إلى أن جسدها يرتعد كله من فرط فرحتها ، حتى بكت وهي تقبلني فسقطت من بين أجفانها على خدي دمعة كبيرة .

ومن الغريب أن أبي بدت عليه الفرحة بنجاحي وإن لم يلق إلي بالا طول مدة دارستي ، فابتسم وربت كتفي وخدي وكأنه أفاق من غيبوبة . ورأته أم ربيع يفعل هذا فأخذت تدعو لابنها دعاء منغما ... كانت تغني وهي تدعو أو تدعو وهي تغني !! . ومن الغريب كذلك أنني كنت من المتقدمين على الرغم من إهمال رعايتي المنزلية ، وما ذلك إلا لأنني أحببت المدرسة التي كانت ملاذي من متاعب البيت ، ولأني أحببت التأمل فكنت أراقب المدرسين بكل حواسي وأنا بين تلاميذ الصف الأول من الفصل ، أراقبهم وعيني ساكنة وملامحي هادئة فيظنني من لا يعرفني من المدرسين غائبا بعقلي حاضرا بجسمي وحده ، فيبغتني بسؤال فأسارع بالجواب .

على أنني فقدت الرقابة في المنزل فإنني كنت أجد من يمحضني النصيحة بين حين وحين ، وكان ذلك في منزل هنية التي أسعدت قلبا غير قلبي ، وفي بيت خالي الذي أحبني وعطف علي . وهكذا ركبت الزورق مقلوبا ونجوت ! .

وبدأت المفاوضات بين أبي وخالي بحضور أختي وخالتي في شأن مواصلة تعليمي ، وقد كان هناك مال مرصود خلفته أمي استطاع خالي بشخصيته القوية أن يحصل على موافقة أبي في إنفاقه حتى أتم

ثقافتى ، ولم يبد أبى شديد معارضة فى هذا الشأن ، لأنه لن يكلفه شيئا وإن كلفه فسيكون قليلا ، كما أن سيدة دارنا وقفت منا موقف الحيدة ، ولعله كان يحلو لها أن أغيب عن مسرح حياتها قريبا وإلى غير رجعة .

ولكن أين المدرسة الثانوية ؟ إنها فى القاهرة . فى البلد الذى قالوا عنه فى كتب الجغرافيه أنه عاصمة البلاد ، ولا أعرف عنه أكثر من ذلك .

وتقرر سفرى فى إحدى أمسيات « سبتمبر » ودبر خالى أمر مسكنى وعرضه على مجلس الأسرة فوافق عليه ، وكان والدى أول الموافقين .

وأخذت الأيام تمر ، وأصبح مقامى فى القرية أياما تعد على أصابع اليدين ، وبدأت أفاخر بأننى سأبدأ مرحلة جديدة فبدأ الإخوان يغبطوننى . واتسعت آفاق أحلامى ، واحتلت مضايقات زوجة أبى أطراف شعورى ، فلم أكد أحسها كأننى مخدر تخزه بدبوس .

ونمت الليلة الأخيرة وبعض ليال قبلها على مخدة وحصير ، لأن الحشية التى كنت أفترشها سبقتنى بالسفر إلى القاهرة ، ولا أذكر أن النوم حوم حول أجفانى فى هذه الليلة . كنت مطمئنا خائفا ، وكنت فرحا حزينا ، كان قلبى كحزمة من قصاصات الخياطة ، ترى فى نواحيها كل لون ، ولم أنس قبل سفرى أن أقوم برحلة أخيرة من الرحلات الجبرية ، فودعت الطرق والترع والأشجار والأراضى البور التى تقع بالقرب منا

ونباتاتها البرية ، وحتى زوج خالتى ، ولقد ضحكت ضحكة مختلسة حين ذكرت أن شاربه هذا سيختفى من نطاقى إلى أمد بعيد ، وأما الشيء الذى تمهلت طويلا فى وداعه فهو أنيسى بالليل وسميرى فى الحجرة .... هو المصباح الصغير الذى بت أرقبه معظم الليل بعين مفتوحة ، وبات يرمقنى طول الليل بعينه الرمداء .

وارتفع ضحى اليوم التالى وأنا واقف على المحطة أرقب مقدم القطار ، ثم ركبت وأنا أحلم ، وقال خالى : مع السلامة .. إنهم بانتظارك على محطة القاهرة فلا تخف شيئا .

وكانت رائحة « الجوافة » تفوح بين أرجاء القطار فملأت خياشيمى وأعواد القطن حمراء جرداء بعد أن جمع ما عليها من ذهبها الأبيض ، فأصبح هذان الشيئان فى ذهنى شارة للسفر منذ ذلك اليوم . وتحرك القطار ، وبدأت أرض البلد تجرى نحو الوراء وأنا فى النافذة ، فإذا بى أجهش بالبكاء ! الوطن عزيز ، حتى لو نبذنا ! .

وسمعت فى محطة القاهرة غلاما ينادى بأعلى صوته هاتفا باسمى، فأجبته ، ثم اختلطت معه فى جموع الهابطين . رأيت المدينة الكبرى للمرة الأولى حين قادنى هذا الغلام بين السائرين فأمسكت بكمه كما يمسك الغريق بطوق من الفلين . وراعنى منها أن كل شيء فيها سريع ، حتى الناس يتحركون بسرعة ، ويتكلمون بسرعة ، وحتى هذا الذى يأكل فى الطريق ــ وهو رجل لا يستحى ــ يأكل بسرعة . وتوهمت أننى سأصاب بدوار أو غثيان ، وبخاصة وأنا أعبر ميدان باب الحديد بعد

خروجى من مبنى المحطة ، وجلست فى عربة الترام مذهولا أذكر الدنيا التى خلفتها من ورائى فى سكون وهمود ووداعة ورضا واستسلام وأذكر سعتها على الخصوص ثم أسائل نفس : وما سر هذا الزحام ؟!

وسلمنى « صبى عم غانم » لعم « غانم » كما يسلم « الطرد » وأصبحت بين عشية وضحاها من سكان القاهرة ، وأذكر أننى استيقظت من منامى قبل أول شمس تطلع على فى المدينة على طرقات نحاسية مجلجلة ، لا على شقشقة العصافير ، ولا قطقطة الدجاج ، وكان يصحب طرقات النحاس صوت غليظ مرتفع ضخم منغم يقول : «عرق سوس » .

أما عم غانم ، فهو الرجل الذى اتفق خالى معه على أن أساكنه فى منزل . قروى من بلد خالى ، فر وهو فى سن الشباب من سعير القرية فقد كان من أدنى طبقات الفلاحين فيها ، أعنى من الطبقة التى يلبس العمل أيديها هناك قفازا خشنا كأنه جلد الفيل . ضاق بالفأس والشمس والعرق وخبز الذرة ، ففر إلى المدينة يضرب فى طرقاتها سائلا عن عمل حتى اهتدى إلى دكان لبان عمل فيه بقروش . ثم تعلم صنع الزبادى والقشدة ، وتعلم بعد قليل عدة ألوان من الحلوى التى تباع فى أحيائنا الوطنية ، ثم انفتحت عليه أبواب السماء بالرزق ، فأضحى صاحب محل . وهو يزور قرية خالى فى الأعياد والمواسم ، فيلقاه الذين سخروا من هجرته بالإجلال والترحيب .

رجل جاوز الأربعين ، قريب من القصر ، قريب من البدانة ، لا

تزال عليه من آثار الريف دلالات واضحة ، هى وشم أخضر على ظاهر كفيه يمثل سنابل القمح ، ووشم آخر على صدغيه يمثل عصافير الربيع ، ولم تستطع أسباب التمدن التى تعلق بأهدابها أن تمحو عنه هذه الآثار على الرغم من السن الذهبية التى تلمع فى جانب من فمه ، والتى عمد إلى إظهارها أول الأمر بإرخاء أحد شدقيه حتى أصبح هذا عادة ملازمة له وأصبح عم غانم معوج الفم .

ثم انتشرنا مع السبت الأول من أكتوبرتلاميذ وتلميذات فى طريقنا إلى المدارس كأننا حفنة من فل وياسمين ، نثرتها يد الله فى شوارع المدينة . وكنت سائرا بين هذه الحفنة على الطوار فى حرص وحذر . مستعيدا معالم هذا الطريق الذى قطعته ثلاث مرات على سبيل التجربة تحت ارشاد صبى عم غانم .

وهدأ تيار أفكارى إلى حد ما ، بعد أن بدأ أنفى يتخلص شيئا فشيئا من روائح الدار والحقل والماشية ويألف رائحة المدينة ، فانقضت بذلك بقايا الحنين إلى القرية . ثم هدأ تيار حياتى تماما بعد أن صقلت لهجتى الخشنة ، فلم يعد يقول لى بعض السخفاء: «يافلاح » ، ولم يعد يسألنى بعض المتظرفين منهم عن الوزن الصرفى لكلمة « فلحلح » حتى أحسست إزاء هذا فى أيامى الأولى أننى شجرة « سنط » غرست أمام « فندق » مشهور ... نعم هدأ تيار حياتى بعد أن اكتسحت هذه الحصيات ، واتضح لهم أن تحت طربوشى الناصل رأسا إن لم يكن جد ذكى فإنه ليس من الأغبياء .

ثم ألفت المدرسة وتلاميذها وألفت الحارة وصبيانها ، وألفت حجرتى الصغيرة ذات « الخارجة » الزجاجية الملونة والمصباح الصغير الجديد الذى لم يكن فى كوة وإنما كان على المنضدة فى ظلال الكتب ، وإلى جوار « منبة » رأيته فى القاهرة أول ما رأيته وسمعت دقاته جيدا وتتبعتها بخاطرى وأذنى فى الليلة الأولى من حلولى بيت عم غانم ، وخيل إلى أنها بعثت فى جسمى خدرا جرنى إلى النوم ، ولا زلت حتى الآن أحس ثقلا وفتورا يشبه النعاس كلما سمعت دقات منبه .

كان عم غانم رجلا ساذجا مرحا ظننته بادىء الأمريحب امرأته . كان يسبق الشمس كل يوم بكثير ويخرج إلى دكانه لأن اللبن والفطائر من الأغذية لتى تطلب فى الصباح . ويتفق لى فى قليل من الأوقات أن أستيقظ على صوته وهويلقى تحية الصباح على زوجته مداعبا فيقول بلهجة أولاد البلد : ياصباح الندى ... يا صباح الورد ، ثم يسرد أنواع الأزهار ويرسل ضحكة قصيرة بين كل حين وحين . حتى إذا مافرغ قال : ياصباح القشدة ... ياصباح الحليب . ويسرد منتجات الألبان وهو يضحك . حتى إذا ما انتهى استأنف حديثه قائلا : ياصباح البسبوسة ، ياصباح البقلاوة ، ويذكر أسماء الفطائر ...

ثم يغادر المنزل وزوجته تشيعه بعبارات تدل على تشككها وعجبها من حبه الذى يبالغ فى إظهاره وتختم حديثها بقولة ألفتها : ما أشد نفاق الرجال !! وهنا يسبح خاطرى حتى يحوم حول أم ربيع ويأخذ فى الموازنة بين المرأتين .

لم تكن أم فوزية فى جمال امرأة أبى ، كانت على العكس تقرب أن تكون دميمة ، تزوجها بعلها من قريته قبل أن تتيسر له أسباب الحياة فتحرى فيها أن تكون راضية بالحال . كانت بائنة الطول بائنة النحافة سمراء جدا كأنها من سلالة النخل ، لا تفارق شفتيها ابتسامتها المصنوعة كأنما أرادت أن تستر بها ضمورخديها .

وأخذت أوازن بينها وبين أم ربيع فلم أجد فى نطاقها « محفوظا » جديدا كأننى كنت في ذلك الحين أتخيل أن وراء كل زوج رجلا غريبا يتوارى خلف جدار أو ستار . وانطبعت نفسى بهذا الطابع السيىء إلى حد أننى كنت أتفرس وجوه زوارهم من الرجال بعين قلقة مستريبة .

لكنه لم يقع لى أن أرى فى نطاق هذه المرأة شيئا ، وقد تعزوه أنت إلى أنها ليست جميلة ، وربما عزوته أنا فى فترة من الفترات إلى أن المصادفة كانت دائما فى خدمتها ، أوعزوته فى القليل النادر إلى أنها امرأة شريفة ، وأيا كان السبب أو كانت الظروف فإننى لم أر فى نطاقها ما يريب .

وأحبتنى زوجة عم غانم ، أحبت فى هدوئى الظاهر وسكوتى الذليل وأننى لاأشكو ولا أتذمر ، وأننى أسارع إلى قضاء كل حاجاتها من الخارج فاستغنت بذلك عن صبى زوجها فى كثير من الأوقات ووفرت عمله للمحل . ثم تطور الأمرفأخذت تسخرنى فى كثير من أعمال المنزل الداخلية كغسيل الصحاف فى أعقاب الطعام وعمل القهوة والشاى لجاراتها المثرثرات عندما يزرنها فيقضين وقت العصر أو الهزيع

الأول من الليل فى استعادة حوادث الأسبوع التى وقعت فى بيوت من يعرفن .

وأحبنى عم غانم نفسه لأنه كان يود أن أذاكرعنده فى الدكان عصر يوم أو مساء يوم ، حتى إذا ما انقضت على جلستى هنالك عشرون دقيقة رأيته ماثلا أمامى وقد انفرج جانب فمه عن سنه الذهبية ثم لا يلبث أن يقول : ذكى والله !! ... مجتهد والله !! ... فأعلم أن هذه الكلمات الضاحكة العابثة إنما يقصد بها أن أقوم بأى عمل يتعلق بدكانه ، كأن أساعد صبية فى توزيع الرواتب أو أقوم بعمل الصبى كله لأنه اليوم مريض حقا أو متمارض متخذ من تمارضه سببا لزيادة أجره اليومى ..

وتستطيع أنت أن تفهم من هذا أننى لم أحظ بإكرام هذه الأسرة إلا عدة أشهر تحولت بعدها إلى نصف خادم أو نصف تلميذ . لكنى كنت بين أفرادها نصف سعيد أى أننى أحسست أن كثيرا من متاعب أم ربيع لم يهاجر ورائى إلى القاهرة . وكنت أحس فى بعض الأحيان أننى مرتاح وأنه لو كان وجه أختى قريبا منى لتحققت لى سعادة كاملة.

لكن موقفى هذا لم يلبث أن تغير بعد انقضاء العام الأول من حياتى فى المدارس الثانوية . فقد أديت امتحان النقل وأقمت بعده فى المدينة يومين وأنا أستعيد ما خطه قلمى فى أوراق الإجابة ، كنت أخرج من اللجنة كل يوم من أيام الامتحان فأستمع من بعد إلى لغط التلاميذ

وهم يتذاكرون ماكتبوه ، فأقف بعيدا عنهم وأنا مرتجف الأوصال لأوازن بين ما فعلت وما فعلوا ثم أفر بنفسى بعد هذا إلى مكان بعيد فإنى غير واثق من صحة ما كتبت ، وانتهت أيام الامتحان وبقيت مبلبل الخاطر فى انتظار النتيجة ، وكان عم غانم يسألنى كل يوم عدة مرات عما عسى أن يتمخض عنه امتحانى ، وكان يؤلمنى جدا أن يقول لى وهو رافع حاجبيه إلى منتصف جبهته ومرخ جانب فمه عن سنه الذهبية ويده تعمل فى وعاء البليلة وأنا واقف أمامه ذاهل مخبول، كان يؤلمنى جدا أن يقول :

ـ هيه ... أخشى أن ترسب ثم تدعى أننا كنا السبب ...وكذلك يفسد الأمر بينى وبين خالك . قل لى يا حسنى ...

ـ نعم ياعم غانم ؟

ـ ألم أكن أحضك دائما على المذاكرة ؟

ـ بلى كنت تحضنى دائما !!

ـ وهل حدث أننى قطعت عليك عملك يوما ما ؟

ـ لا . لم يحدث !!

ـ وهل وقع يوما أن تسببت أم فوزية فى تعطيلك ؟

ـ مطلقا يا عم غانم .

فيرفع الرجل المغرفة ويطرق بها حرف الوعاء عدة مرات طرقات منتظمة كأنه يصطنع بها نوعا من الموسيقى ليسليه على العمل ، فأرفع رأسى من إطراق المستحيى وأنظر إليه بعينىّ المستديرتين اللتين تكادان

أن تقولا له : أنت كذاب ياعم غانم .وأطلب من الله النجاة !!

أذكر أننى أحسست المسئولية بمعناها الحقيقى طوال الأسبوع الذى انتظرت فيه نتيجة عامى كله . كنت خائفا مذعورا أحس كأن كل الناس أعدائى وكأنهم يتربصون بى الدوائر . آه إن رسبت !! ستتنصل أم فوزية من كل مسئولية وستصرخ فى وجهى هاتفة : ألم أقل لك ؟! وسيكبر ويحوقل عم غانم وهو يضرب كفا بكف ويقول : أم أقل لك ؟! وستظهر أسنان أبى فى وجهه النحيل الحائل وهو يبتسم ـ ولا أدرى أغاضبا أم شامتا أم آسفا ـ ثم يهمس : ألم أقل لك ؟! وستمصمص أم ربيع بشفتيها وتنظر نحوى بعينها الكسيرة وهى تهتف : ألم أقل لك؟!

وستضرب هنية صدرها بكفها وتفتح فاها فزعا وحسرة ثم تميل على هامسة : ألم أقل لك ؟! المصيبة العظمى هى أن يدعى الجميع أنهم قالوا لى . وأن أبى سيقطع الحبل إن رسبت لأنه عاقل ذكى يتعظ دائما من التجربة الأولى .

وبدأت أفيق إلى ما فرط من اهمالى القسرى ، كالسكران الذى بدأ يعد ما شربه من كئوس . ثم رفعت كفىّ الصغيرتين فى الليل وأنا مضطجع على الحشية التى توهمت أنها ستقفل عما قليل راجعة إلى البلد ، رفعت كفى إلى السماء وهتفت بصوت خافت دامع مبحوح : يا رب ... استر !!

وكانت دقات المنبة على المنضدة تتحسس طريقها إلى أذنى فى نغمة حزينة متهافتة كأنها كانت الموسيقى التصويرية التى نسمعها من

«الأفلام »بالنسبة إلى أفكارى .

ولم أسافر حتى أعلنت النتيجة وذلك كأمر أبى فى إحدى رسائله . ولعلك متلهف لمعرفة ما حدث ... لقد نجحت !! ألم أقل لك إن الأقدار مكنتنى من أن أركب الزورق مقلوبا فنجوت ؟!

كانت فرحتى عظيمة جدا ولا أنكر أن فرحة أسرة عم غانم كانت عظيمة جدا أيضا : كادت أم فوزية تزغرد ، وأقسمت أنها كانت تعلم خبر نجاحى من مصدرين ، من قلبها الحساس أولا وبالذات ، ومن فنجال جارتها الست أم زينب الذى لا يخطىء مطلقا . وأما عم غانم فقد هنأنى بمصافحة كادت تخلع ذراعى الضعيفة وقدم لى بعد ذلك قطعة من البسبوسة .

على أن فرحة النجاح فترت فى نفسى بعد ذلك حين رأيت أننى حاصل على النهايات الصغرى فى بعض العلوم ، وحين سمعت من اطلعوا على كشف درجاتى يقولون لى : إن نجاحك كان قضاء وقدرا .

ومن العجيب أن نفطن ونحن صغار إلى أن هناك أعداء يكمنون لنا فى زوايا الوجود ، فقد تخيلت أن أم ربيع التى لا تعرف القراءة ولا الكتابة ولا تعلم عن النهايات الصغرى والكبرى إلا بمقدار ما تعلمه عن أشهر الحدائق والملاهى فى باريس أو لندن ـ تخيلت أن هذه المرأة ستمسك بكشف درجاتى وتناقشنى الحساب بنفسها أمام أبى وأمام محفوظ ثم أرى فى عيونهم جميعا من السخرية ما رأيته ليلة راودتنى نفسى أن أفضى إلى أبى بالسر الذى وقعت عليه عيناى .

وهذا هو الشق النافع فى علاقتى بزوجة أبى ... كنت أخشى دائما أن أعود إلى حظيرتها خائبا أو مهزوما فأقيم عندها مقام الأسير لا طعام ولا ظل ولا ماء . وهكذا كانت تقول لى أختى هنية دائما وكلما ترانى ، لذلك عولت على أن أغير نهج حياتى فى عامى الثانى فكنت أفر بكتبى من وجه أم فوزية وصحاف طعامها وعدة شايها وقهوتها وثرثرة جاراتها التى لاتنقطع ، وأفر بكتبى من وجه عم غانم حتى لا أساعده فى عمله ، كنت آوى إلى غرفة أحد زملائى أو إلى ركن فى إحدى الحدائق أو إلى مصباح على أحد الجسور فوق النيل فى إحدى ليالى الربيع إن حزب الأمر واقتضت الظروف ، حتى لكأننى كنت فى هذه الأيام كالمضطهد الذى يفر بعقيدته .

وكرت الأيام عاما تلو عام وأخذت تمر وتمر ، ورأيت تفوقا نسبيا فى نتائج أعمالى فسرنى ذلك وشحذ من همتى . ثم خلعت جمود غلمان الريف ، وسرت فى دمى موجة خفيفة من الحرارة تعد بشيرا بتفتح الشباب . وبدأت حركاتى تميل نحو الخفة شيئا ما ، ثم أحسست مع الأيام كأن فى جسمى طاقة محبوسة ...شيئا أحسه وأشعر به ولا أستطيع أن أعبر عنه !! .. بل أستطيع أن أقول مع قليل من التجوز : أنى كنت أتخيل أن جسمى أشبه بالصهريج الذى ملأ بالماء حتى شرق به ... فيه قوة غير عادية أعجب جدا منها لأنها لا تتناسب مع ضآلته فلم أكن فارها ولا طويلا . ثم أدركت أخيرا أن أرقى فى بعض ساعات الليل كانت هذه القوة الطارئة من ضمن أسبابه .

ونلت شهادة الكفاءة ، وكنت من المتفوقين ، وانتقلت إلى السنة الرابعة الثانوية ، وبدأت أجتاز السابعة عشرة من عمرى ، وبدأت أتفاعل مع الحياة تفاعلا حقيقيا ... أقصد أنى أخذت أرفع فى وجهها سلاح الإدراك ، أو العقل إن أعجبك هذا التعبير ، أما قبل هذه السن وفى الأعوام التى أقمتها فى القاهرة ، فقد كانت حياتى أشبه شىء بصفحة النهر ، مطردة جارية مستوية متشابهة فى كل رقعة ، لاننتبه إليها إلا إذا لمحنا على أديمها شيئا غير عادى كالجثة أو كالمستغيث .

بدأت أستعيد ماضى جزءا جزءا ، وأذكر حوادث الصغر المهمة التى تمثل فى غمار زمانى أشباحا طويلة عريضة يدركها المنظر وإن كانت فى شبه ظلام . أستعيدها فأبسم أو أقطب ، وأحب أو أكره ، أو يشتعل حبى أو تضطرم كراهتى . وبدأت على الرغم من هذا الجد أتأمل وجهى مليا فى المرآة الصغيرة غير المنتظمة الأطراف ، والتى هى فى الأصل قطعة من مرآة صوان « أم فوزية » أتأمله وأعجب للسمرة حين تجرى فيها النضرة ولروائح الرجولة التى تهب على الوجه الصغير . ثم أتنفس ملء رئتى وكأننى أقول : أريد الحياة .

وفجأة بدأت « أم فوزية » تنظر إلى على أننى رجل ، فأخذت تخفى عنى بعض أعمال كانت لا تبالى أن تعملها أمامى كأن أطرق الباب طرقة مستعجلة ، فتسارع هى إلى فتحه ، ثم تعود فتكمل تغيير ملابسها .

لم أعد أرى هذه المناظر فاعتقدت أنى لم أعد صغيرا ... ولكن

أهى مثل « أم ربيع » ؟!

يجوز !! ولكننى لم أر شيئا حتى الآن !!.

ثم رأيت ما سأقصه عليك :

كنت فى أحد أطراف المدينة فى نهاية هذا العام حين كانت أنفاس الصيف تخالط أنفاس الربيع فى شهر مايو . وكنت سائرا على طريق هادىء فى آخر النهار وفى يدى كتاب ألتهم ما أستطيع التهامه منه لأننا كنا على أبواب الامتحان . ولم تكن هذه البقعة إذ ذاك عامرة مأهولة ولم يكن فيها سوى عدة منازل جميلة منثورة خطها الأغنياء بين شوارع رسمت حديثا لاتزال تنمو فى أنحائها النباتات الوحشية . وكان الطريق هادئا طويلا يندر أن ترى فيه السائرين على الأقدام إلا طالبا مشغولا ، أو حاملا فى آخر أيام حملها تتمشى شاهرة بطنها مقوسة ظهرها ، أو عاشقا متواضع الحال يريد أن يشهد على عشقه الهواء والسماء والجدول والشجر لأنه لم يكن على هذا الطريق ما يكلف العاشقين شيئا . ولمحت على بعد قريب قامة قصيرة لرجل فى جلباب من الصوف رمادى داكن ، وقد عرفت صاحب هذه المشية ولبسته فى الطربوش الذى يدفع به إلى الوراء تارة وإلى الأمام تارة فى لحظات متقاربة ، وأسرعت فى خطاى قليلا حتى أقصر المسافة بينى وبين هذا السائر وأصبحت منه على بعد عشرة أمتار على التقريب فإذا بى أرى ما قد توقعته : رأيت عم غانم بلحمه ودمه . ولكن ... من هذه التى تمشى إلى جواره ملففة فى ملاءة ؟ إنها غير التى أعرفها ... ليست أم

فوزية ، وهل تتشكك العين فى مرآها بين مائة امرأة وهى كالمشجب الواقف حين تلقى عليه الملاءة ؟ أما هذه التى ترافقه فإنها منسقة ، توحى حركاتها بالرقة والرشاقة .

جعلنا كلنا نسير ، هما أمامى منهمكين فى الحديث وأنا وراءهما منهمكا فى أفكارى مخبئا نصف وجهى بالكتاب المفتوح فلا يبين منه إلا عيناى .

وأعترف أننى أصبحت بالنسبة إليهما فى موقف بعيد عن الكياسة كل البعد . كان ينبغى أن أتريث قليلا حتى يبتعدا أو أن أعود راجعا على الطريق حتى لا تلتقى وجوهنا . كان فى استطاعتى أن أتصرف لو أننى فى نصف وعيى ، ولكننى كنت دهشا مأخوذا . كنت وراءهما على مسافة ثابتة لاتتغير كأنهما كانا يجرانى بخيط ، وكنت مشغولا فى تصور ملامح هذه المرأة وفى استعادة موقف زوجة أبى مع ابن عمها . وأخذت القضية فى ذهنى وضعا عجيبا وهو أننى لم أنتبه إلا إلى أحد شقيها فحسب ، أى أننى أحييت نصفها وأمت نصفها الآخر فكنت أقول مثلا : لم هذا ؟! هذا غريب ؟ هذه المرأة متزوجة ولاشك ! أكذا يا رب كل النساء خائنات ؟! .

وهكذا فرضتها متزوجة قبل أن أرى وجهها ولم أتعرض ما يقع لما يقع على عم غانم من تبعة فى هذا الموقف ، لقد بالغت فى أفكارى وأنا أنقل خطواتى على الطريق وراءهما وكأننى مسحور ، بالغت فأكدت لنفسى أن لأم فوزية رجلا يمثل هذا الدور ، وإذا كنت لم أره



كان ينبغى أن أتريث قليلا حتى يبتعدا ...

فليس معنى هذا أنه غير موجود ، وألفيتنى أهمس بعد قليل وعيناى تبرقان من زاوية الكتاب المفتوح أمام وجهى : لعنة الله على أم فوزية. إنها قطعا ثالثة الخائنات اللاتى رأيتهن حتى الآن ، ولو أنها حريصة فيما تعمل .

ثم عدت أحاور نفسى قائلا : إن التى تمشى إلى جواره امرأة أعرفها . كنت ألمح فى عينيها معانى غريبة حين تلقى عم غانم أمام باب الدكان لأمر ما . إنها جميلة ، وهى لا شك وجه لايمت بأى صلة إلى الوجه الذى يقتنيه . إن صدق ظنى وكانت هى ، إذن فلا فرق بين الجميلة والدميمة منهن ... كلهن خائنات على اختلاف درجاتهن فى الملاحة . أليست هذه غاية فى الجمال ، وأم ربيع متوسطة فيه ، وأم فوزية صفر منه ؟! .

وهممت أن أستدير راجعا ، ولكننى فوجئت بصوت مزعج انبعث بغتة من بوق سيارة لينبهنا سائقها إلى أنه سينحرف بها إلى طريق جانبى ، وانتبهنا ثلاثتنا ، والتفت عم غانم وصاحبته إلى الوراء ، وربكنى الموقف فأدرت إليهما وجهى ، والتقت نظراتنا فاعترانى خجل شديد حتى وجدتنى أمرق كالسهم وراء السيارة تاركا لهما الطريق الرئيسى. وصرت أتخبط ساعة من الزمن حتى عرفت أين مكانى .

كنت أرى عم غانم من قبل وفى كثير من الأحيان يدمن النظر إلى إحدى النوافذ التى تواجه دكانه ، وكنت أرى من وقت إلى آخر فى هذه النافذة وجه امرأة : وقد لاحظت مع الأيام أنها تبادله الابتسام ثم تنهال

على وجه وليدها بالقبل ، ثم التقيا على الطريق ..

***

وهكذا دخلت أم فوزية فى نطاق المتهمات عندى وإن لم أجرب عليها شيئا ، لأننى مرضت بالتشكك . وقد كان من الجائز جدا ألا تسجل ذاكرتى ، وألا يعى انتباهى شيئا مما رأيته فى القاهرة لو أن عينى لم تتفتحا على ما اقترفته أم ربيع ، لقد أصبحت هذه المرأة مع الأسف أقرب إلى أن تكون فى نظرى معنى من المعانى المجردة ، فلم تعد مخلوقة من لحم ودم ، بل أصبحت هاجسا يسكن فى نفسى وريبة تجرى فى عروقى ، حتى نغصت على فى أيام شبابى أشهى ملذاتى ، وكانت بالنسبة إلى نشواتى اللطمة التى تصك وجه السكران لأجل أن يفيق .

وأصبحت بفضل هذه الأبواب التى فتحتها على شابا هادىء الظاهر مضطرم الباطن كأننى مستنقع غطت خضرة « البشنين » كدرة مائه الآسن !! .

وفسد الأمر بينى وبين عم غانم وإن لم يقل أحدنا للآخر شيئا ... كانت عيوننا تتلاقى فتتبادل نظرة سريعة يعقبها الإغضاء من كلينا ، وكانت النافذة لاتنفتح إذا حومت نحو الدكان ، وكان هو لا يرتاح إلى وجودى هناك ، وكنت أنا كذلك ، وبذلك كسب الطرفان ، فلم يعد يعطلنى عن شىء ، ولم أعد أعطله عن شىء .

غير أنه كان يتفق لى أن أستيقظ من نومى مبكرا وتصادف

يقظتى نهوض عم غانم من نومه ، فأسمعه صباح بعض الأيام وهو يلقى التحية على زوجه بمرحه القديم الذى عرفته فيقول : ياصباح القشطة ، أو يا صباح المهلبية ، ثم يتضاحكان ، وتشيعه حتى الباب وتودعه بقولتها المألوفة : ما أشد نفاق الرجال ! . كان يتفق لى أن أسمع هذا بعد الذى رأيته من زوجها فيدرك قلبى معنى كلمة النفاق ، ويستحيل هذا الشيء المعنوى من دقة تصورى إياه إلى شيء مادى محسوس ، تكاد ريحه تفوح فى أرجاء منزل عم غانم تملأ خياشيمى ،

وهكذا أصبت بالتشكك وأصبحت علاقة المرأة بالرجل فى نظرى علاقة غامضة يحجبها دخان ، وأصبحت كأننى مريض بـ « ازدواج المنظر » أرى الشيء الواحد شيئين اثنين فلم أعد أرى الزوجين رجلا وامرأة فحسب ، بل صرت أراهما رجلين وامرأتين !!

كادت زوجة أبى تفسد على الحياة كلها حين خلقت منى شابا يرى فى الحركات العادية أشياء غير عادية ، وفعلت معى فعل الطبيب الذى قال لرجل لا مرض فيه : إنك مريض بالقلب ، فعاش المسكين ردحا من الزمن يتتبع دقات قلبه متصورا أنها أعلى مما يجب بكثير ، واشتدت به الحال حتى ظن أن القلوب السليمة كلها صامتة لا تدق . ولقد آلت حالى بفضل أم ربيع فى فترة عصيبة من فترات شكى إلى مثل حال هذا المريض فتصورت أن المرأة الشريفة هى من لا تحب أى رجل فى الوجود ولو كان زوجها ، فهل تتصور هذا ؟! .

وانقضى العام بسرائه وضرائه وعدت إلى القرية فى إجازة الصيف

طالبا منقولا إلى السنة الخامسة وسينال « البكالوريا » فى عامه المقبل .

رأيت أبى قعيد البيت لأنه جاوز الستين . كان قد وفى الخدمة كما يقولون ، وربى طبقة من التلاميذ إثر طبقة ، فاستحق بذلك «مكافأة » من مجلس المديرية على مدة عمل جاوزت ثلاثين عاما . ولم تكن نار غيظى شديدة الاضطرام عليهم فى هذا الصيف لأن أبى كان فى حالة تدعو إلى الرثاء . كان نفسا فى قفص كما يقال فى القرى ، أو كقوس النجاد منحنيا نحيلا كما يقولون فى القاهرة . وحز فى قلبى أن أشعة الموت الصفراء قد أدركت وجهه المستطيل وأن جبهته البارزة زادت بروزا ، وحز فى قلبى وعناه أكثر من أى شىء أننى رأيت طباعه قد بدأت تتغير نحوى . كان يختلى بى كلما غابت زوجته عن البيت ويتحدث إلى فى حنان رفيق ، وكنت أرى كأن عينيه الكليلتين تعتذران عما فرط اعتذار أبيا صامتا عليه مسحة من عناده القديم .

ويمتد بنا الحديث حتى يطرق ذكريات طيبة يحملها لأمى فيرفع كفيه المعروقتين نحو السماء داعيا لها بالرحمة فأفهم من ذلك أن الرجل أدرك بعد غروب شمسه أن ضحا نهاره كان خيرا من أصيله ، وأنه غير راض عن أم ربيع . وهنا يتململ لسانى فى فمى وتساورنى الصورة القبيحة التى رأيتها عليها مع ابن عمها ، فأهم بأن أتكلم ولكنني أعود فأحجم . ويخفق قلبى نحو أبى بالحنان والرأفة حين

يخيل إلى أن مثلى سيكون كمثل ولد يدق حطام أبيه إن آلمته بذكر ما فات . وأسرعت أمور الدار نحو التغير بعد تقاعد أبى بسنة أو أكثر ، وأخذ جفاف العسر يجرى فى خضرة المعيشة ، وبدأت سيدة الدار تنفق مما ادخره جسمها من خصب قديم . وتزوج محفوظ ، ولعل الله كتب له السعادة فهو لا يزورنا إلا فى القليل النادر . وأما ربيع فهو الآن غلام طردته المدرسة الأولية بعد أن ضاقت به ، وخلاصة ما يقال عنه إنه نما فى ظلال أم تحرص على سلامته وفى كنف والد شيخ ضعيف ملق إلى زوجته بزمام نفسه . ومن أجل هذا لم تكن لربيع خطة يختطها فى الحياة .

وقابلت خالى فى ليلة من ليالى الصيف . زرته فى بلده ولم يكن هو فى الدار ساعة وصلت إليها ، ثم دخل علينا فى أدبار النهار فتلقانى بوجهه المتطلق الحنون حتى خلت أن امرأة تكمن وراء هذه الرجولة وأنها تحركها ، بيد أن هذا لم يكن خيالا بل كان إحدى الحقائق ... إن الخئولة أمومة مذكرة !!

كان عشاؤنا فطيرا فى موسم القمح وعسلا أسود وجبنا قريشا ، وقد امتلأ منه خالى ثم تجشأ ومسح شاربه وبرقت أساريره بريقا فهمت منه أنه سيتكلم بشىء مهم ، ولست أدرى لم خفق قلبى ، ولم يلبث خالى طويلا حتى قال :

ـ يجب أن أبلغك قبل أن أنسى سلام عمك غانم ، وابتسم ، وبقى وجهه كما كان فصيحا تتراقص عليه إشارات من كلام ، قلت أنا:

سلمك الله وسلمه ياخالى ، وكيف حاله ؟ .

وتركته يتكلم ... لم أتابعه ولم أع مما قال شيئا فقد عدت إلى ذكرياتى القديمة ، ورأيته فى الطريق ، وذكرت التى كانت معه ، والتى رأيتها بعينى ، وذكرت أم فوزية وخليلها الذى لم أره قط ، وذكرت أم ربيع ومحفوظ ، وكنت فى هذه الأثناء كالذى راجعته الحمى فعاد إلى الهذيان ، ولم أستفق إلا على شىء مهم ولو لم يكن مهما ما استطاع أن ينتزعنى من وساوسى المكتسبة .

ــ لقد أبدى عمك غانم رغبة فى أن تترك منزله ، و ..

فغاب لونى وخفق قلبى وسارعت أسأل خالى :

ــ وما السبب ؟

فقال وقد رفع من حاجبيه متعجبا :

ــ السبب هو أنه حر .

فبدأت أرتبك وركبتنى الوساوس ، وخيل إلى أن الرجلين يتهمانى . وكدت أبتسم باكيا أو أبكى مبتسما حين خلتهما يظنانى محبا لأم فوزية ، ولكن خالى ما لبث أن استطرد :

ــ ألست معى فى أنه حر ؟ .. هيه .. ثم ألست الآن رجلا ياحسنى ؟ .. أقصد أنه منذ الآن يجب أن تتحرك فى مسكنك بملء حريتك . ألم تحس وأنت تساكن أسرة عمك غانم أنك مقيد فى كل ما تفعل وأنك تأتى كل شىء بمقدار ؟.

وسكت ، ولكن عينيه لم تسكتا ... كانتا تشعان ببريق طويل لم

يطرف حتى امتلأ رأسى بكل ما يريد أن يقوله . ولقد فهمت منه أشياء منها الصحيح ، ومنها المبالغ فيه بالطبع ، ولكن شيئا واحدا ظل يلهب عقلى بسوط من الحيرة :

ـ « ماذا وراء الستار ؟! هل هنالك امرأة ؟ » لكننى لم أستطع أن أسأل خالى !

- ٤ -

وبدأت أعواد القطن تتراقص مع نسيم الخريف الأرعن مسلوبة من كل شىء حتى من معظم الورق . وبدأ جو الحدائق والأسواق والأزقة فى قريتنا يعبق بريح « الجوافة » وكان معنى هذا فى قوانين حياتى أن إجازة الصيف قد انتهت أو أوشكت ، وأننى سأسافر إلى القاهرة لاستئناف عام جديد . وصممت على أن أسكن وحدى . ولست أدرى لم كنت أستشعر السعادة كلما تصورت نفسى فى مسكنى المستقل ...

كان القطار يجد بى فى مسيره نحو العاصمة وأنا غارق فى تأملاتى . وأحسست يومذاك أننى فى سن تسمح لى بأن أتأمل وأن أتفهم وأن أصل بعد ذلك إلى نتائج . وقد علمتنى التأمل وحدتى الذليلة فيما قد مضى من أيامى . كنت غارقا فى تأملاتى أجمع ما انقضى من سالف حياتى فى حيز محدود وألقى عليه نظرة ، ثم أفرغ منه فأتخيل حجرة سأسكنها وسريرا صغيرا ومنضدة جديدة ووداع هذه الأسرة التى ما ربط الله بين قلبى وقلب أحد منها برباط حتى فوزية الصغيرة التى كانت تدخل على حجرتى فى صباح أو مساء فلا ألقاها إلا بالجفوة ، حتى هذه لم يعطف نحوها قلبى أن فيها براءة الصغار ،

لأننى كنت أكره بعض الأطفال وأذكرهم عندما أراها .

على أن موقف يوم ودعت هذه الأسرة لم يكن خاليا تماما من شىء من الأسف ، فلقد خفق قلبى وأنا أنظر إلى « المنبه » ذاكرا أننى لن أستمع لدقاته بعد اليوم وأن حركات آلته الرتيبة لن تنبعث إلى أذنى فى الظلام حاملة إلى جسمى خدرا يجلب النوم ؟! وأذكر أننى حملت نظرتى إليه معانى من الأسف والألفة التى تحملها نظرتى إلى أم فوزية ... آه ... لكثيرا ما تكون صداقات الجماد أبقى وأقوى من صداقات بعض الناس !! .

ثم أطللت على الحياة من نافذة حجرتى الجديدة .

كانت بعيدة عن الحى الذى سكنته من قبل كأننى أردت أن أكون جديدا فى كل شىء ، عسى أن يصادفنى فى الحياة عهد جديد . كانت فى أطراف المدينة بقعة من بقاع « جبل الكبش » حيث زحف المدنيون بالفئوس والمعاول فاكتسحوا التلال وردموا المغاور وسووا الأرض ثم أقاموا البيوت . ودلنى أحد الطلاب من إخوانى على بيت فى هذه البقعة وكانت حجرتى فيه .

وفرغت من ترتيب حاجاتى ثم وقفت عند بابها وأوليته ظهرى حتى تتراءى الحجرة لى كما تتراءى للداخل الغريب فأعرف وقع نظامها على النفس . لم يكن فيها إلا سرير أمامه حصير صغير ومنضدة نثرت عليها الكتب المدرسية ، وبعض متاع إضافى يحتل أحد الأركان ، أظهر ما فيه سلة الخبز وموقد الجاز وحلة النحاس .

وكانت وحيدة منعزلة على سطح المنزل ، وكان المنزل كذلك وحيدا منعزلا ، كان آخر المنازل نحو جبل المقطم يفصل بينه وبين الجبل مساحة من الأرض مستوية مهيئة للبناء ، يقرب طولها أن يكون مائتى متر . وهى بالطبع فى الناحية الشرقية ، أما الناحية الغربية ففيها بقية منازل الحى ، وأما الشمال والجنوب فلا تستطيع أن تعتبره فضاء ولا بناء ، لأن المساكن كانت تقوم فيه فوضى منثورة يتعذر عليك أن تخضعها لنظام.

وكنت أصعد طبقتين من المنزل حتى أصل إلى السطح وأتجه فيه نحو الغرب فأدخل من الباب ، وهناك أجد فى الحجرة نافذة واحدة تنحرف عن مواجهة الباب شيئا قليلا .

واستقبلت فى هذه الحجرة مساء أول ليلة من ليالى الوحدة ، وسكن الليل فأحسست حقا أنى فى خلاء . كانت نسمات الخريف تمرق من النافذة الغربية متوثبة فى طريقها نحو الباب ، فيتراقص معها ثم ينصفق كما تنطلق الرصاصة . فإذا ما قمت لأفتحه أخذت عينى مناظر المقطم الرابض تحت جنح الليل الصامت كصمت الفيلسوف . وإذا عدت لأشرف على الكون من نافذتى الغربية بدت القاهرة تحت مستوى بصرى منخفضة تلمع أضواء نوافذها المفتوحة وراء غلالة رقيقة من ضباب النيل وهنا تسرى فى أوصالى تلك النشوة التى تخلقها الوحدة فى الغالب فأتخيل كل ما أشتهى ... أتخيل أننى أطل من أبراج قصرى على أملاكى الواسعة ، أوأتخيل أننى فى بقعة أويت إليها

بفقري ولجأت إليها ببؤسى حتى لا يعرف مكاننا إنسان .

وأخذت أضواء النوافذ تتوارى من سماء القاهرة شيئا فشيئا وأنا جالس إلى النافذة ملق بزمام فكرى إلى يد لا أعرف ماهى .. يخيل إلى أننى اكتشفت حياتى فى هذه الليلة فقط ، حتى لكأننى تحسست جسمى ولمست الوجود بيدى ، ونشرت خريطة الدنيا أمام بصرى كما يفعل القواد فى الحرب ، ثم رأيت فيها موقع حجرتى منها وموقعى أنا من حجرتى ووضعت تحته إشارة بالقلم الأحمر . كانت هذه أولى ثمرات الوحدة ... لقد أحسست أننى مخلوق .

قلت فى نفسى : وما الماضى ؟

فعرضت على الذاكرة « فلما »فى ظلمة الليل كانت أولى صوره المقبرة التى دفنت فيها أمى والتى وقف على ترابها طفل حافى القدمين ينظر إلى الموت نظرة البلهاء ، ولكن خديه بللهما الدمع . ثم كانت صورة أبى العجوز وأسرة عم غانم آخر ما تراءى فيه .

وقلت فى نفسى : وما المستقبل ؟ فلما لم أجد جوابا تنهدت وتلفت ، فإذا الدنيا غارقة فى سكون ! .

وقد كان هذا العام بدء الحركة الحقيقية فى تيار حياتى . وقعت فيه حوادث متلاحقة رتبها الله ترتيبا تصاعديا حتى تتشربها نفسى ، وقد وقعت الحادثة الأولى فى المدرسة :

تناولنا غدء الظهر فى أحد أيام الشتاء ، ثم انتحينا إحدى نواحى الحديقة هناك . وكنا عددا يقارب أن يكون عشرة ومن بيننا شاب لم ندع

اسما من أسماء عشاق العرب ولا علما من أعلام الغرام عند الفرنجة إلا أطلقناه عليه . وقد كان شابا عجيبا لايحرص على أن يقبل حبيبته بقدر مايحرص على أن يقتنى صورتها ، حتى جمع عددا من الصور سماه « فصل أول » من مدرسة حبه ، لهذا خلقه الله وقد يسره الله لما خلق له.

وكان بين هذه الجماعة فتى يماثلنى فى الهدوء ، قليل التحدث فى شئون الحب مثلى تماما ، ولكن هدوءه لم يكن محترما . لقد أراد القدر ألا يهدم كيانى من كل ناحية فاحترمنى إخوانى بعد عامى الأول !

وفجأ رأينا هذا الزميل الهادىء يهاجم سيد العشاق ويرميه بأنه كثير الادعاء وأن القاعدة النفسية كما حدثهم مدرس علم النفس ، أن الضعيف فى أمر يكون دائما شديد الادعاء فيه . فما كان من أمر الثانى إلاأن انهال عليه بالنكت فانهمرت أفواهنا بالضحك ، فانهارت أعصاب زميلنا الهادى ، وكاد الدم يطفح من وجهه وعينيه . وإذا بنا نسمعه يقول فى صوت صاخب متلاحق العبارات :

ـ لقد خلقوا منك بطلا فى هذا الميدان وأنت من الكاذبين ...

إنك تجمع صورا خيالية لتخدعنا بها ... من هذه التى تحبك ؟! إن حبيبة واحدة خير من « فصلك الأول » فقال الثانى متهكما : وأظنها التى تحبك يا غبى . فلم يكن جوابه إلا أن قال : نعم ... التى تحبنى . وبرقت عيناه ببريق التحدى ثم أخرج حافظة أبرز منه آيات الله فى جمال الطلعة ، والتففنا حوله نتزاحم على نقد تقاطيعها ، وكانت الصورة

فى يده تهتز بارتعاش أعصابه . ورآها سيد العشاق كما رأيناها ، فأرسل ضحكة تجلجلت بها أركان الحديقة ، فقال له بعضنا : ماذا ستقول ؟ ! إنها حقا أجمل من نصف « فصلك » فأجاب قائلا : لست أنكر وهذا يشرفنى ، قلنا متعجبين : ولماذا ؟ فأجاب : لأننى أعرف صاحبتها وسأريكم صورتها عما قريب . فانقلبت سحنة زميلنا من حمرة إلى صفرة ، ومن صفرة إلى غبرة وقال بصوت خافت مبحوح وعيناه تلمعان كما يلمع السف : أتحداك !!

وقد كنا جميعا ننتظر . والتأم شملنا فى حديقة المدرسة بعد أيام ، واقترح أحد الخبثاء أن يبرز المحب الجديد الصورة التى معه حتى إذا ما أظهر سيد العاشقين الصورة التى أحضرها قام الجميع بالموازنة بين الصورتين ، لأنه من الجائز جدا أن يكون بين الفتاتين وجه شبه فحسب ، وقد كان . وجعلت عيوننا كلنا تنظر وتوازن ، فما فتئنا أن اكتشفنا أنهما من صنع مصور واحد لفتاة واحدة .

وابتسم بعضنا وصفق بعضنا ، وبانت علامات العجب على بعضنا الباقى ، ونظرنا فإذا الخصمان قد انتصب كل منهما أمام صاحبه كما كان يفعل المتبارزان ، وارتعد جسد المحب الجديد كما تنتفض القصبة فى مهب الريح ، على حين كان غريمه ينظر إليه فى ذهول لم نعهده فيه . وأفقنا جميعا على لطمة شديدة صكت وجه سيد العشاق ، ثم اشتبك الطالبان فى عراك باليد واللسان ، وكان العاشق الجديد يشتم أول الأمر بصوت مرتفع أخذ يخبو شيئا فشيئا حتى انحبس ثم سقط

صاحبنا مغشيا عليه .كنا نظن أن المأساة قد بلغت ذروتها بين الزميلين فى هذه اللحظة حتى التففنا حول الصريع وجعلنا نتهامس : أحضروا ماء...حذار أن يرى الضابط شيئا ...لاتخافوا ، لقد بدأ يفيق ...

ثم آن له أن يخرج من الغيبوبة وأن تنفتح عيناه وتدور فى محجريهما مفتشتين عن غريمه ، وهنا بلغت المأساة ذروتها الحقيقية لأن المسكين كان يقلب ناظريه فينا ويقول بصوت هامس مذهول : أختى .. أختى .. « صورة أختى » .

وانتهت الحادثة ، ووقع المسكين فى مأزق لم يكن يخطر له على بال لأنه أراد أن يكون عاشقا فحمل صورة أخته ، لكنه كان من الضرورى له أن يغيب عن مسرح الحوادث عدة أيام ولو فى إجازة مرضية .

كانت أضواء القاهرة تتتابع فى المغيب تحت بصرى كما تتهاوى الكواكب . وأنا ملق بخدى على كفى جالسا على الكرسى مسندا ذراعى إلى حافة النافذة . واسترجعت ذاكرتى فى سكون الليل صورة زميلنا وهو ملقى على عشب الحديقة وحفنات الماء تبلل شعره ووجهه وثيابه ، وقلت فى نفسى : وما ثمن كل هذا العناء ؟! . إنه لم يكن عناء منتظرا بطبيعة الحال ، لكن السؤال لا يزال قائما ، فما ثمنه يا ربى ؟!

وألفيتنى أجيب :

المرأة !! . ثم تململت فى مجلس وهززت رأسى كأننى أنفى شيئا

ثم قلت : أوه .. خطأ .. المرأة ؟! .. أم ربيع ؟! .. أعوذ بالله ..حبيبة عم غانم ؟! . أم فوزية ؟! . ألسن جميعا من النساء ؟ إنهم مجانين !!

وانقضت بعد هذا فترة وجيزة ، كان رأسى فيها أشبه بالوعاء الفارغ .. لم يكن فيه أفكار .. أو كانت أفكاره متعادلة يمحو بعضها بعضا كقبضتى المتلاكمين حين تلتقيان فى قوة واحدة . ثم طرأت على ذهنى فكرة سمعتنى بعدها أهمس فى ظلمة الليل وأنا جالس وحدى : الحب !! ..

وتململت فى مجلسى مرة أخرى وهزت رأسى كأنى أنفى شيئا ، ثم قلت : أوه .. ما الحب ؟!. ولم يسعفنى عقلى ، ولكن شفتى ألحتا عليه ، فأخذت أهمس باستمرار كما يفعل المجنون : ما الحب ؟ . ما الحب ؟ . ما الحب ؟! . ولم أسكت ولم أتمهل كأننى ألهب عقلى الراكد بسوط لكى يتحرك ولكى يجيب . وتدخلت أم ربيع وصاحباتها فى المسألة فإذا بالإجابة تجىء على هذه الصورة :

ـ الحب امرأة تتغذى برجل ..

وابتسمت ، وخيل إلى أننى كنت راضيا عن هذه الفكرة ، وتصورت أشد جماعة العشاق فى المدرسة بأسا وهو يجادلنى ليزحزحنى عما وصلت إليه ، فجعلت أقول له : لاتحاورنى ، الحب امرأة تتغذى برجل فى وضع من الأوضاع ... بجسمه وماله وشخصيته ، كما حدث لأبى ، أو بماله وجسمه ، كما حدث لعم غانم ، أو بجاهه ، أو بعواطفه، وأهدأ ساعاته كما حدث لناس لست أعرفهم ... لاتجادلنى من فضلك.

وألفيتنى أقفل النافذة بعنف وأقوم فأرتمى على الفراش ، وأنا أحس أنه لا يزال فى النفس معنى يستقر فى الأعماق ، ولم تستطع إدراكه أفكارى !! .

ووقعت الحادثة الثانية :

ـ تعرفت على « راشد » ثم نمت المعرفة حتى كانت صداقة . كنت أتذكر دائما سخط أبى على أصدقائه وقوله : « كأن مهمته فى الحياة أن يكتشف خيانات أصدقائه له » فأثر فى هذا تأثيرا عكسيا كالذى فزع من أن يرث عن أبيه مرض السكر ، فجعل نفسه دائما تحت مراقبة الطبيب ، ووجدتنى حريصا عل ما أكسب من صداقات كما كنت فى صغرى حريصا على محبة أندادى فى ملاعب القرية . وأنا الآن أشد الناس اعتزازا بصداقة « راشد » .

كان لقاؤنا الأول فى حدائق الأورمان ، وكنت يومذاك سائرا أقطع طرقاتها جيئة وذهوبا ، وفى يدى كتاب لا آبه لشىء سواه . واتفق مرورى أمام أجمة صغيرة من أجمات اللبلاب التى تكثر فى هذه الحدائق ...

كما فى أخريات الربيع وفى يوم عطلة ، وسرت منهمكا فى مذاكرة أحد الدروس ، لكن منظرا أخرجنى من جو الكتاب إلى جو الحديقة ، وكان هذا المنظر بالنسبة لأفكارى عن المرأة أشبه شىء بالحامض الذى يثبت المصورون به ألوان الصورة الشمسية .

رأيت عاشقين قد افترشا أرض الأجمة على مقربة من طريق غير

مسلوك وكانت جلستهما توهم الناظر بأنهما قد فرغا لتوهما من قبلة أو عناق . ولم يكن يبدو عليهما أنهما مهتمان بأحد ، كما لم يكن منظرهما من المناظر التى تشفع للأحباب عادة عند عيون الناس ، فقد كان الرجل ممن جاوزوا الأربعين بادى الطول بادى النحافة ، يملأ النمش وجهه الأبيض . وكانت هى قصيرة سمراء لاتشتهى العين أن تتفرسها طويلا .

ومررت بهما لا ألوى على شىء ، ثم وجدتنى بعد أن جاوزتهما بقليل أقطب جبينى وأمصمص بشفتى أسفا وإنكارا ، لكننى لم أعرف السبب الذى دعانى إلى أن أدور فى مماشى الحديقة حتى أمر بهما مرة أخرى . ثم وجدتنى بعد أن جاوزتهما فى المرة الثانية أقطب جبينى وأمصمص بشفتى كذلك أسفا وإنكارا .

وهنا يعرض فى طريقى شاب وسيم صبوح ، يدل منظره على أنه طالب ويسألنى فى رفق وجرأة وابتسام ، قائلا فى همس وهو يشير نحو الجالسين : يعجبك هذا المنظر ؟!

ولم أقل فى نفسى عقب سؤاله ما يقال عادة من أنه فضول ، بل أحسست كأننى أعرفه وألفيتنى أجيبه قائلا:

ـ ألست معى فى أنه شىء يرثى له ! (قال ولم تفارق الابتسامة وجهه المشرق) :

ـ وكيف أيها الصديق ؟

ـ كل منهما لم يفهم معنى الحق ولا الحرية ولذلك أساء

استعمالها .

ـ أفكار مدهشة ، ولكن أهذا هو كل ما فى الأمر ؟

ـ أراهما غير منسجمين . (فضحك قائلا) :

ـ هل تتحدث عن الجزيئات ، أم تتحدث عن المجموع ؟

ـ لاالجزيئات منسجمة ، ولا المجموع منسجم .

ـ إنك على حق ، لقد رأيتهما من قرب . هو أشبه بالثعبان الأرقط . وهى أشبه شىء بالدبة . لذلك أرى من المصلحة العامة أن أفرق بينهما .. أجل المصلحة العامة يا صديقى كما تردم حفرة فى طريق المارة .

ثم أومأ إلى بإشارة من يده بأن أنتظره حيث كنا نقف ، وجعل كتابه تحت إبطه واندفع بقامته الطويلة قاصدا باب الحديقة القريب منا ، وتركنى حائرا فيما سيفعل .

كنت على مقربة من إحدى الخمائل فى مكان يسمح لى بأن أراهما ولا يسمح لهما بأن يريانى ، وخلا المكان بهما منذ ابتعدت عنهما فانهمكا في الحديث برهة وتقاربا فى مجلسهما ، حتى تلاصق جنباهما وشقشقت فوقهما العصافير وانصب عليهما شعاع الشمس من خلال الأعواد ، ومرت على هذه الحال فترة رأيت بعدها وابلا من الحصا ينصب حيث يجلسان . وكان الحصا كله فى حجم اللوز والبندق لئلا يكون شديد الأذى ، وتتابعت الحفنات فى فترات منتظمة فلم يريا بدا من الجلاء عن المكان فى خجل وعجب .

كانت البقعة قريبة من الطريق الخارجى يحتضنها سور الحديقة النباتى العالى ، وكنت فى مكان أرقب هذا المنظر وأنا أضحك ، لكنى كدت أختنق من شدة الضحك حينما رأيتهما يبعدان فى ذعر ويغيبان خلال الشجر على حين كانت حفنات الحصا لاتزال تتساقط مخشخشة بين الغصون ، كأنما كان راشد يفعل هذا على سبيل « التمكين » .

ثم تكرر لقاؤنا وتعددت أحاديثنا وعرفت أنه مثلى طالب فى البكالوريا لكنه فى غير مدرستى . ولم أحتج إلى وقت طويل حتى أكون عنه فكرة واضحة فقد كان هو نفسه كالفكرة الجميلة يعيها العقل ويقبلها الذوق من أول ماتعرض له . كان مبتسما دائما ، وكان يقول : إن فم الإنسان لم يخلق إلا ليبتسم . وكيف لا أبتسم يا صديقى وقد جربت دائما أنها مفتاح لمغلق القلوب . وكان متحركا لايمل الحركة ومن أجل ذلك لم يسعه القسم الداخلى فى مدرسته الثانوية فضجر به وتركه، أو قد ضجر به المشرفون ، وموجز الفكرة التى كونها صديقى عن هذه الأقسام أنها معسكرات غير نظيفة !!

ثم وقعت الحادثة الثالثة :

أستطيع أن أعتبرها حادثتين ، وأستطيع أن أعتبرها حادثة ذات شعبتين لأننى بدأت أفكر فى المرأة ، أو بدأت على وجه الدقة أتمنى فى بعض الأحيان أن تكون هناك امرأة بالقرب منى ... ثم انتبهت فجأة إلى شبحها فى طريق حياتى !!

لم تكن أفكار وحدتى عنها مشبعة دائما بالنقمة العظمى التى

شحنت نفسى بها فى الأيام الماضية . كانت هذه النقمة تتذبذب بين الارتفاع والانخفاض كما تتذبذب حرارة المحموم .. وكانت تدنو من الانخفاض كلما احتوتنى حجرتى الهادئة ، ثم تكاد أفكارى عن المرأة تستحيل إلى حركات منغمة إذا ما ازداد الهدوء من حولى ... إذا ما انفردت بنفسى وسكن الليل وسكن الجبل وتتابعت أضواء القاهرة فى الاختفاء تحت بصرى ، حتى إذا ما أصبح الصباح وخرجت إلى مدرستى وقعت عينى فى كثير من الأحيان على الفتيات يحملن الحقائب وهن فى طريقهن إلى المدارس أو المشاغل ، فتخوض فى جمال إحداهن ، ثم ترتاح إلى ملامحها ثم يحمل الدم إلى مخى شيئا منعشا منبها معا ، كأنه خليط من العطر والنوشادر ، فيملأ رأسى برهة ولكنه لايلبث أن يزول ، وتظهرلى فجأة ومن بين الزحام زوجة أبى وهى تنظر بعينيها المكسورتين . فتمشى عقارب الحقد على شغاف قلبى وأتمنى أن يكون هناك امرأة ، على القرب منى . لأحكمها لا لأحبها ، ولأتحكم فيها لا لأدللها ، ولأنتقم من جنس أم ربيع فى شخص هذه التى تعرض فى طريقى .

على أن كل هذه الخواطر المخلوطة لم تكن خالية تماما من معنى الحب ... لقد كمن عنصر الحب فيها على كل حال وإن كان قليلا خفيا كعرق الذهب يضل بين ذرات الصخر . وقد أدركت هذا فيما بعد .

ولست أنسى أن أحدثك عن تلك التى عرضت فى سبيل حياتى ، أو عن التى عرضت أنا فى سبيل حياتها فألف الوجود من شخصينا

مشكلة من المشاكل التى يهبط الوحى علينا بحلها بعد فوات الأوان فيقع على نفوسنا بأسف أشد من أسف المشكلة نفسها .

ولست أدرى كيف رأيتها دون الكثيرات من بنات جنسها وهن حولى فى كل مكان ، أستقبلهن بنقمة وأشيعهن بنقمة . ولكن الذى أدريه هو أننى انتبهت فجأة إلى أن هناك فتاة على قرب منى وأننى ملأت منها عينى عند النظرة الأولى . كنت فى طريقى إلى مدرستى فى صباح يوم من أيام الشتاء ، فما ابتعدت عن المنزل بمسيرة خمس دقائق وبدأت أهبط سلم قلعة الكبش ، حتى ذكرت أننى نسيت أحد كتبى التى يجب أن أصطحبها إلى المدرسة فرجعت أدراجى . وبدأت أخوض شعاع الضحا على الأرض البكر التى لم تكن قد حظيت بعناية مصلحة التنظيم فإذا بى أرى فى طريقى فتاة كأنى رأيتها لأول مرة ، كانت تنقل قدميها بحذر وهى سائرة حتى لا يتلف التراب لمعان حذائها الصغير ، وكانت فى طريقها إلى مدرسة المعلمات تحمل على خصرها برشاقة حقيبة كتبها المتوسطة وتشد على وسطها حزاما أحمر على ثوب من الصوف كحلى اللون ، ولاحظت أنها أخذت تنقل خطاها ببطء أكثر حينما اقتربت منها كأنها تحرص على أن ترى شيئا على الأرض . وتقاصرت المسافة بينى وبينها حتى صارت مترا واحدا فرفعت عينى إلى صفحة وجهها المستدير فإذا بى أرى شبح ابتسامة تتخايل على شفتيها المطبقتين .

ومضى كل فى سبيله لكننى التفت ورائى لألقى عليها نظرة أخرى



ولاحظت أنها أخذت تنقل خطاها ببطء
أكثر حينما اقتربت منها ..

ثم استرجعت نظرتى فى عجب وخوف ، وتماسكت فى ذعر كأننى مشرف على هوة ، وصعدت إلى حجرتى فأخذت كتابى ، ثم سرت أفحص خفقات قلبى وأنا فى الطريق إلى المدرسة فحصا مستعجلا قلقا أبتغى فيه أن أصل إلى نتيجة سريعة . كنت أسائل نفسى كلما خطوت عشر خطوات أو عشرين خطوة :

ـ لماذا رأيتها ؟! أقصد لماذا رأيتها من دون بنات جنسها ؟!كنت أتصور المرأة فى خلواتى ولكن على هيئة غير واضحة المعالم كأنها صورة شمسية مهزوزة ، فأمسيت الليلة ، وقد تمثلت لى صورة زينب التى رأيتها فى الصباح ، نائبة عن بنات الجنس كله فى مشارق الأرض والمغارب .

ومنذ تبلورت تأملاتى وتركزت تخيلاتى فانصبت كلها على شخص واحد فى عالم الواقع ، أحسست أن حرارة حقدى على المرأة قد انقسمت إلى قسمين كل قسم منها يمثل « حرارة » مستقلة . أما الأول فهو حرارة الحقد كما هو بطبيعة الحال ، وأما الثانى فهو شىء لا أعرف اسمه غيرأننى أستطيع أن أتصوره على وجه ألفه الناس .. أننى كنت من قبل أحس أن فى داخلى نارا لها لفح النار ولا شىء إلا اللفح ... أما الآن ، وفى بعض الأحيان فحسب ، خصوصا عندما تتقدم خطا الليل وأصغى إلى حديث السكون ـ أحس أن فى داخلى نارا لها لفح النار وفيها دفء النار ، وقد أحس الدفء وحده فأستسلم له برهة فى خمول هادىء مستسلم لذيذ .

وأمسيت الليلة فتمثلت لى صورتها التى رأيتها فى الصباح . كنت قد فرغت من دروسى وأطفأت مصباحى وأويت إلى الفراش فإذا بى أذكر خطواتها فى الصباح وإذا بى أتمثل ملامحها فى صورة صغيرة قدر التى تكون عادة في « الكرنيه » ثم تكبر الصورة وتكبر وتضىء وحدها فى الظلام ، حتى أحس كأننى فى السينما وكأن استدارة وجهها الخمرى تملأ وحدها الشاشة البيضاء فى « فيلم» ملون بالألوان الطبيعية فأبدأ فى تفحصه برفق وعلى مهل ... تفحصا ترافقه أنغام موسيقا تصويرية سماوية سحرية . فأبدأ بتلافيف شعرها الحالك المغدودن الغزير الذى ينحسر إلى الوراء عن جبين نظيف ناصع واسع ، ثم أهبط فأرى عينيها السوداوين وأهدابها المشرعة ، ثم أرى بعد ذلك عقدة العقد أوعقدة السحر ... أرى أنفها المستطيل الجميل الذى يشبه أبناء البلد أمثاله بقصبة الذهب ، وأتأمل عقدة جميلة قريبة من أعلاه كالتى تراها فى أنوف تماثيل الإغريق المرمرية .

ثم تلتفت الصورة يمنة ويسرة وتتخايل على شفتيها ابتسامة ، ثم تولد ... ثم ... ثم تختفى ، ويسود الظلام . فأدلك عينى ببطن راحتى قليلا وأدقق النظر فلا أرى إلا أوهامى فأستدير راجعا فى غمار الماضى وأستعرض حلقات عمرى الذاهل المستكين الذليل فأرى زوجة أبى خلال سلسلته وكأنها حلقة من نار ، فأستعيذ بالله من شرور المرأة وأجهد نفسى فى استعادة الصورة الجميلة التى أتملاها منذ وقت قليل لكى تعود ، فألطخ بنهمى نقاء حياتها وأشوه بخيالى بهاء جمالها .

— ٥ —

والتقينا فى ظلال الصداقة أنا وراشد خليلين جمعت بيننا الظروف .

وما الظروف ؟!

هى العناصر التى تؤلف من شخصياتنا القسم الذى لا اختيار لنا فيه ، فأنا وأنت والناس جميعا تتكون نصف شخصياتنا على الأقل من مجموعة من الظروف ، يدخل فيها الولد والوالدان والوطن وأصدقاء الطفولة والصبا والشباب .

وقد كان راشد من أصدقاء شبابى .

وكنت وإياه شخصين التقت فلسفاتنا فى الحياة عن طريق عكسى ... كان كل منا يولى ظهره للآخر ثم سرنا مجدين كل فى اتجاهه حتى التقينا متواجهين بعد زمن . قال راشد :

ـ ما أشبهنا برحالتين خرجا من الإسكندرية فشرق أحدهما وغرب الآخر ، وما زالا يسيران حتى التقيا فى الإسكندرية مرة أخرى .

قلت : لأن الأرض كروية . فقال عابثا : ولعل فلسفتنا عن الأرض فيها الكثيرمن طبيعة الأرض أقصد أنه من الجائز أن تكون هى

كروية كذلك !!

كان كلانا غير راض عن حياته لكننا اختلفنا فى طريقة التعبير عن عدم رضانا .

كنت أنا أنظر إلى الحياة نظرة مترددة متحيرة قلقة ، فيها خوف وفيها تشكك ... كنظرتى إلى المرأة سواء بسواء . أما هو فكان ساخرا يعبر عن فرحه بابتسامة ويعبر عن أسفه بابتسامة بل ربما قهقه إن خانته الفرصة . وكان ناجحا فى كل شىء إلا فى حياته المدرسية ، جاوز العشرين ولم ينجح فى البكالوريا ولولا شخصيته الفذة وبناؤه القوى المكين لأصبح هدفا لسخرية الطلاب والمدرسين ، لكنه على الرغم من كل هذا خفيف الروح ليس من نوع أولئك الفاشلين الذين تبدو الغباوة على وجوههم ، بل كان كالجميلة التى ترثى لها حين تعمى عن جمالها أعين الخطاب ، أما وجهه فلقد تأنقت فى تصويره قدرة الله وأهم ما فيه عيناه الواسعتان وفمه المبتسم ، تتحدث ملامحه بأنه خلق ليكون فنانا ، شاب من الذين ينقلون خطاهم فى الوجود كما يحلو لهم لا كما يرسم الناس . ينتهب الحياة لأنه يحتقرها لا لأنه يحرص عليها ، كان مثله مثل السائر فى طريق لا يرتاح إليه ، فهو يسرع خطاه فيه ليتخلص منه بسرعة . ومن أجل ذلك كانت حياته سلسلة عجيبة متعاقبة من نجاح وفشل . وقد يسرت له هذا الضرب من المعيشة ثروة حسنة وإن لم تكن طائلة . ورثها عن أبيه الذى تركه فى سن السادسة وأقام المجلس الحسبى عمه وصياً عليه كرغبة الوالد ونجت التركة من

مشارط الأوصياء بفصل يقظة أمه .

كان شاعرا وإن لم يقل شعرا ، وفيه نجدة الفرسان وإن لم يعش في القرون الوسطى .

كان كقوس قزح فيه ألوان الفن كلها ... وقد ذكرتنى شخصيته بذلك الطالب الذى أطلقنا عليه فى مدرستنا كل ألقاب المحبين ، وقصصت عليه قصته ذات يوم ففغر فمه من الدهشة ثم قال :

ـ أما أن يجمع هذا الطالب الصور فذلك نوع من الشذوذ يذكرنا ببعض شذاذ الناس الذين يحملون أنفسهم عناء جمع صور العظماء والفنانين وعليها توقيعهم . أما أنا فإننى أعد المرأة فى الوجود شيئا مهما ... أعدها اليد التى تحرك الماء فى الحوض الراكد ، وأعتبرها الكهربة الكامنة فى كيان كل رجل ، ومنها يكون النور، ومنها يكون الحبور .

كان فى حجرتى ليلتئذ وهو يتحدث بهذا الحديث ، ثم سكت برهة اتجهت عيناه فيها إلى السقف وفمه نصف مفتوح كأن إحدى الكلمات قد تجمدت فيه ثم تكلم من جديد وهو على هذه الصورة وكأنه يتلقى العبارات من عالم آخر ثم يلقيها وهو تحت تأثير لاأعرفه ، فجعل يقول: نعم ... منها النور ، ومنها الحبور ... هى الزهرة الحية فى بستان الوجود ... عينة من الجنة فى دنيانا الفانية ، والدليل على أنها من هناك أننا ننسى المتاعب ونحن فى أحضانها .. أما كانت أو حبيبة شريفة أو غير شريفة ...

واستمر كذلك فترة ليست قصيرة كأنه على خشبة مسرح ، لكننى لم أسمع أكثر مما قلته لك لأننى بدورى غصت فيما يخصنى وجعلت أركض فى ذكرياتى الواسعة تائها ضالا وأوازن بين ما جربت وما أسمع الآن . وكان كلانا ولاشك مشغولا عن صاحبه بأفكاره حتى آن لنا أن نلتقى من جديد وأن يسترجع راشد عينيه من السقف ثم يضحك مقهقها ويقول : الحب ... آه ... الحب يا صديقى ...

وينتقض فجأة واقفا من مجلسه على الكرسى تجاهى حتى تكاد المنضدة الصغيرة التى بيننا أن تنقلب بما عليها من كتب وفنجالين فارغين من الشاى . ثم يميل على نصف جسمه الأعلى كأنه راكع ويداه معقودتان خلف ظهره : ورأسه يهتز بطيئا بطيئا من يمين إلى شمال وهو يردد هامسا وفى ابتسام : الحب يا صديقى.. هل تعرف ما هو ؟! قلت دهشا مذهولا : لا .. أيها المجنون . فتراجع حتى اتخذ مجلسه على الكرسى كما كان ، ووضع يده فى جيب سترته الداخلى وهويقول : إذن فلأصفه لك .*

وقد كان بليغا وما كنت أظنه هكذا !! .

لقد أخرج « ناياً » صغيرا أبيض وجعل يعزف عليه برهة من الزمن ... كانت عيناه مسبلتين فى معظم الوقت ، وأنامله متنقلة على ثقوب الناى كأنها محمومة أومسحورة . وكان لا يرفع إلى طرفه إلا فى أحيان متباعدة كأنه يريد أن يرى أثر دبيب النغمات فى أعصابى . لم أتحرك ولم أتكلم لكن كنت فاهما ما تقوله الأنغام ، لقد كانت فى

ائتلافها واختلافها وارتفاعها وانخفاضها تعزف لى كلمة الحب ، فأدركت إذ ذاك لماذا لجأ الإنسان إلى الموسيقى... وما لجأ إليها إلا ليوضح بها مدلول كلمات لا يستطيع أن يوضحها باللسان .

ثم خيل إلى مع سكون الليل وصمت الجبل وصفاء الروح أن النغمات قد امتدت أسلاكا بين السماء والأرض ، وأننى بدأت أعرج عليها رويدا رويدا كما يعرج الملاح على حبال السفينة . وسكت راشد ، فقلت له : لقد أجدت الوصف ، إنك فنان ياصديقى ، فمالبث أن قال وعيناه ترعيان ظلام الليل من فتحة النافذة : آه .. المحبون .. أعنى الذين غزا الحب قلوبهم فأحسوا ألمه اللذيذ وعانوا لذته المؤلمة .. لابد للقلوب من هذه اليد ..

لا بد أن تلامس أناملها الخشنة الرقيقة أكمام قلوبنا لتتفتح .. ولتنفح العطر ... ثم لتعطر الوجود .

ثم سكت ، ثم فارقه الشرود رويدا كما تتلاشى سدف الضباب أمام أشعة الشمس ، وافتر فمه عن ابتسامة لمعت بها ثناياه ، ثم انتفض ضاحكا وهويقول : لاشىء بعد هذا فقد أثقلت عليك ... يجب أن أنصرف . ثم ودعنى عجلا كأنما خرج ليدرك قطارا .

***

إنك لاتعلم حتى الآن أن زينب تسكن معى فى منزل واحد لأنى لم أحدثك عنها إلا حديثا عارضا قصيرا . وهل تستحق المرأة فى حياتى أكثر من هذا الحديث ؟! هذا ما أعتقده ، وقد أكون مخطئا فيما أعتقد.

إن قلبى لينتفض فى بعض الساعات انتفاضة تدل على الحياة .. انتفاضة الأرض الموات ترى فى إحدى نواحيها شجيرة ، ولكنني أنظر إلى حركاته بكل حذر لأن حركته بالنسبة إلى المرأة أشبه شيء بحركة لولب المقصلة ، الخير كل الخير فى سكونه ، والشر كل الشر فى أن يتحرك .

إن زينب تسكن معى فى منزل واحد بل هى ابنة صاحبة المنزل احتسبت أباها فى الميتين وهى فى سن مبكرة ، ورضيت أمها بعد ذلك بالترمل فلم تقدم فضلة شبابها بين يدى رجل آخر . وكان هذا من أجل زينب ومن أجل أخيها الذى يصغرها :

ولم يكن بينى وبينها منذ سكنت منزلها أكثرمن لقائنا العارض ، وكثيرا ماكانت تبدو على فمها ابتسامة إذا تراءينا بيد أنها ابتسامة قصيرة العمر ماكانت تولد إلا لتموت ، غير أنى أحسست على الرغم من كل هذا بأثر منها ... كانت بسمتها فى نظرى أشبه بحفنة الضوء، تترامى إلى من عالم مجهول . أو كانت كالإشارة اللاسلكية يتلقاها ساكن الأرض من ساكن المريخ ... كنت أستلذها ، ولكننى لا أثق فيها وأحب أولاها لكن لا آمن عقباها ، من أجل ذلك لم أكن أعمل على أن أستزيدها .

كانت شقتهم فى الطبقة التى يليها سطح المنزل ، أعنى أنهم كانوا يسكنون تحتى ، وكانت حجرة الاستقبال فى مسكنهم تقع تحت الحجرة التى أقطنها أنا فى السطح . عرفت هذا من أنهم كانوا قليلا

مايفتحون الشرفة التى تقع تحت نافذتى الغربية ، وإذا حدث أنهم فتحوها سمعت عندهم ، وأنا إلى جوار نافذتى ، أصواتا تتصاعد تبين فيها صوت صاحبة البيت وهى تقول بين فترة وأخرى : أهلا وسهلا .. آنستم .... نورتم ..

وكانت الشرفة تحت نافذتى آهلة بأصص الزهر ، مزدحمة بها تماما، يدل منظرها على أن أحد الذين يقطنون هذه الشقة مولع بجمال الأزهار ، ولم يكن هنالك من يسقيها ولامن يرتب أصصها سوى زينب.

ولاأكتمك أننى فكرت فى هذه الفتاة . ولكن أفكارى عنها كانت صورة مشوهة مخلوطة ... كنت متعصبا لفكرتى عن المرأة تعصب الوثنى لجلال صنمه فلا أريد أن أتحرر من ربقة الأوهام كأننى بذلك أنتقم من أم ربيع بطريق غير مباشر ... وكنت كذلك أشم من وجه زينب الصبيح ومن عينيها الراضيتين رائحة الشفاعة فيجنح قلبى قليلا إلى العفو ، وتمشى فى جسمى الذى خلقه من طين حركة منتشية خفيفة تريد أن تستفز أوصالى ، ولكننى أسارع إلى رداء التعصب فأرتديه وأخضع بعد ذلك لجلال الصنم ... وكنت أقول لنفسى فى قليل من الأحيان : هب أن مفتاح قلبى فى يمينى لا فى يمين « كيوبيد » ، أترى من المستطاع ألا أدير المفتاح فى باب قلبى مرة واحدة فأعيش أبد الدهر على غير مايعيش الرجال ؟! لست أدرى !!! .

وتركت المشكلة تتأجج وتأكل نفسها كأنها النار ، وجعلت من شخصى رجلا آخر « يتفرج » على شخصى ، وكان معظم شعورى



ولم يكن هنالك من يسقيها ولامن يرتب أصصها سوى زينب

وأكثر أحساسى مع « المتفرج » لذلك كنت مرتاحا ...بقيت المشكلة تأكل نفسها حتى أخريات الشتاء من عامنا هذا ، وكان اليوم يوم جمعة، وكانت السماء صافية الأديم ، تسمح لأشعة الشمس أن تحتضن الكون المقرور فتدفئه بعد أن عبست له الطبيعة أسبوعا كاملا . وما ارتفع النهار حتى كنت على السطح ، وأخذت أتملى هذا الجمال برهة قبل أن يستأثر بى الكتاب ، فملأت العين من مناظر التلال التى أحال المطر سمرتها إلى سمرة العنبر والتى ظهرت كهوفها فاغرة أفواهها ولمعت بعض أحجارها تحت أشعة الشروق ... لقد كان يوما جميلا خصيبا كأنه الواحة فى صحراء شتائنا الموحش . وسرى الدفء فى أوصالى حين نفذت الأشعة إلى بدنى من جلبابى الخفيف فأخذت أنقل خطاى على بلاط السطح جيئة وذهوبا وعيناى فى الكتاب . ولست أدرى كم مر على من الزمن ولكن الذى أدريه هو أنى شممت رائحة لم يألفها أنفى إلا على مقربة من مقاصير النساء فى عربات الترام أو فى أنفاس حقائب أيدى السيدات حين يفتحنها فيفوح منها خليط طيب ، وانتفضت كأننى مقرور ، ودارت عيناى فى محجريهما تفتشان عن مصدر الرائحة فقد كنت أجد رائحة المرأة ، وأخيرا رأيتها على رأس السلم فى ثوب من الصوف أرجوانى قاتم ، وقد بدت أطراف شعرها المغسول من تحت « إيشارب » أبيض . بدت جميلة سوداء ، وغطت غدائرها كتفيها من الخلف ، وكانت هيئتها كهيئة المتردد ، وكانت وقفتها كوقفة من ينتظر الإذن ، لكنها كانت باسمة مطمئنة ، وخيل إلى

أن شمس الضحا شبت لونها الخمرى فزادت فى نضارتها الفطرية ، وخيل إلى أنها تسألنى بعينيها : هل ضايقتك هذه المفاجأة؟ . وهممت أن أقول : لا . بل لعل رأسى تحرك إلى الجنبين حركة تؤدى معنى النفى من حيث لا أدرى . ثم ما لبثت من فورى أن سمعتها تلقى تحية الصباح فأجبتها بحركة آلية واسترخت يمناى بالكتاب ، وتسمرت عيناى فيها ، ولم تعد أذناى تسمعان إلاخفقات قلبى .

كانت فرصة قصيرة كلمحة العين ، لكن مشاعرى استوعبت فيها إحساسات جد طويلة . لقد استعدت فيها لذة المقطوعة التى عزفها لى صديقى راشد على « الناى » فصور لى دبيب الحب إلى القلوب . وخيل إلى أننى أسمع النغمات من جديد ، وأنها امتدت أسلاكا بين السماء والأرض وأننى أعرج عليها ، لكننى لا أعرج وحدى فى هذه المرة بل مع هذه التى إلى جوارى .

وتفقد كلانا مفتاح الحديث مرة أخرى ، وامتد بنا الصمت وأخذت فترات الإطراق تطول . وخيل إلى أن الأوان قد آن لتستدير على عقبيها إلى حيث تهبط السلم . لكنى سمعتها وهى تتكلم ... كانت رافعة وجهها إلى السماء ملقية بنظرها إلى الأثير كأنها شاعرة تفكر فى استهلال قصيدة ، وارتجفت شفتها السفلى مرة أو مرتين قبل أن يصافح صوتها مسمعى :

ــ ألست ترى أن الجو جميل ؟!

ثم أخذت تتحسس موضع « إيشاربها » على رأسها وتلمس

بأناملها خصلات شعرها من الأمام والخلف لمسا خفيفا كأنها تريد أن تتأكد من أن كل شيء لايزال في مكانه ، لم أرد عليها أنا إلا بإيماءة وابتسامة كأنها تحدثني بغير لسان قومي . ولعل ذلك كان سببا في أن البسمة التي ولدت على شفتيها أخذت تتسع قليلا قليلا كصفحة الماء ألقى فيه بالحجر ، حتى إذا بلغت غايتها رأيت من محاسنها شيئا جديدا لم أكن رأيته من قبل ... رأيت « نونتين » عميقتين قد ارتسمتا على خديها فزاد هذا في ارتباكي لأنني لم أكن متوقعا أن أرى في وجهها محاسن جديدة ، ثم استحيت أن يطول الصمت فحركت لساني الجاف في حلقي قبل أن أتكلم ، ثم قلت وأنا أشير نحوها بالكتاب : لعل أمورك المدرسية على ما يرام ياآنسة ...

وابتلعت ريقي لأن ملامحها كانت تدل على أنها تتوقع أن تصغى إلى حديث طويل ، ثم وصلت كلامي بعد برهة :

ـ والأيام سريعة المرور ...و ...

ولم أجد شيئا ولم أستطع أن أوضح كلامي فأشرت نحوها بالكتاب مرة أخرى ... يخيل إلى أنني كنت أثقل من الزئبق حين تحدثت عن الجو المشرق الجميل فوقفت أنا موقف المعلم ينصح باستذكار الدروس وينذر الطلبة بالامتحان كما ينذر الأنبياء بالقيامة . لكنني فعلت هذا ولم أكن قادرا على أن أفعل سواه . بيد أن داخلي كان متعادلا فلم أشعر بحقد على هذا الجنس ولم أشعر نحوه بنشوة ، إنما كنت كالمخدر يعي مجرد الحركات بلا لذة ولاألم . على أنها تطوعت فحملت عني

عناء موقفى حين قالت وهى تلتفت نحو السلم ، لقد تأخرت الخادم فلم تصعد بالغسيل ... آه ... صدقت فيما تقول ، لكنى على الرغم من كل شىء لاتطاوعنى نفسى على أن أضيع كل وقتى فى كتب المدرسة ... هناك ملذات أخرى ، ملذات عقلية لامناص من أن تستأثرمن يومنا بوقت لذيذ .

وفتح الله على فقلت وأنا مزهو بهذا الإلهام . طبعا طبعا .. لعلك تقصدين الحياكة أوتعنين أشغال الإبرة والتطريز ؟.

لكنه خاب ظنى وتراجع زهوى حين لمعت بالابتسام عيناها وظهرت النونتان على خديها واسترسلت تقول :

ـ لاشك أن فى هذا لذة ومضيعة مفيدة لأوقات الفراغ ، لكننى قصدت إلى شىء آخر .. قصدت إلى مايتخيره المرء لنفسه من القراءة، وقد فتنت أنا بكتب الأدب ... هل قرأت شيئا منها ؟ .

وسقط فى يدى وتحيرت ، وأحسست فى هذه اللحظة أنه من الضرورى لكل إنسان فى الدنيا أن يقرأ كتب الأدب ، ثم هززت رأسى وأنا أقول :

ـ مطلقا ... سوى ما كان مقررا علينا فى المدارس .

وتلاشت الابتسامة التى كنت أستر بها خجلى ولم يبق على ملامحى إلا جمود من الصمت والحيرة . وكدت أوقن أن فى الحياة كماليات قد تسبق الضروريات فتكون أهم منها .. الفنون !! نعم ... كمال ضرورى أو ضرورة كمالية .. نغسل بها النفوس ونحييها كما

تغسل عيوننا فى حوض من البلور . أجل أجل .. لقد أحب صديقى التوقيع على الناى ، وهى تحب كتب الأدب ، أما أنا .. آه ... لكأننى أعيش فى غابة من شجر السنط لازهر فيها ولاثمر ! .

ثم استنزلتنى نبرات صوتها من مسابح أفكارى . كانت تقول بلهجتها الصافية الندية : وألذ الساعات عندى هى التى أجلس فيها فى يوم جمعة أو عطلة إلى قائمة الفهارس فى دار الكتب فأقف على كتاب جديد تتسنى لى قراءته .. كم وددت أن يكون لى من الثروة ما يمكننى من اقتناء مكتبة كبيرة .ما الكتب يا سيدى إلا عقول الأجيال حفظت فى الورق خلف زجاج الخزائن » .

ـ آه .. أهذه أنت ؟ .

وأخيرا صعدت الخادمة بالغسيل ؟

ولم أنصرف من فورى بل جعلت أسير جيئة وذهوبا على بلاط السطح متشاغلا بالقراءة على حين بدأت هى تساعد الصبية فى نشر الملابس المغسولة . ورأيت أنه من المستحسن أن أدخل إلى حجرتى لأن مجال الحديث أمام الخادمة صار ضيقا فى نظرى ، وقد فعلت . ولم أنس أن أومىء إليها بالتحية قبل انصرافى . وقد ردت ملامحها على ردا بليغا .

ثم بدأ جمود الأيام ينتفض وبدأ سكون الحياة يتحرك ، وليس من المعقول أن المصادفات كانت تحابينا على الدوام بحيث تهيىء لنا فى كل يوم لقاء . كانت زينب بلا شك تنتحل الأعذار وتلتمس العلل حتى

تتراءى ولو على السلم ، ولاأكتمك أننى كنت كثيرا ماأستجيب لدواعى رغبة خفية فى أن أراها ، كنت أتعجل النزول لمأرب أو لغير مأرب حين أسمعها واقفة على بسطة السلم تنادى خادمتها أو تهتف باسم أخيها أو تنقد بائعة للبن حساب الأسبوع . ومن العجيب أننى كنت لا أعترف بأن هذه الأعمال تدخل فى معاملات القلوب ، فكأن المقت الذى حفظته نفسى للمرأة بدأ يتطور وشرع يتحور ، فظهر فى صورة تستطيع أن تسميها مغالطة .

هذه دكنة الحياة قد أخذت تخف فى ناظرى قليلا قليلا وشعرت على الرغم منى أن قلبى مرتاح فى مكانه ... هل تفهم ما أعنى ؟! .. أحسست أن قلبى قد أخذ فى صدرى مكانا ممهدا سويا كالذى يأخذه الجنب على الفراش الوثير .. ثم أخذت أفكار الليل المبهمة الغامضة المشاعة غيرالمحدودة ، تتبلور وتتميز وتدور حول فتاة حقيقية موجودة يفصل بينى وبينها السقف وحده ، ولعلها تسمع فى الظلام وقع خطواتى ، أو لعلها تفكر فى أضعاف ما أفكر فيها . ثم ألفيتنى أقول وأنا جالس وحدى وعقب تفكير طويل : هذا عجيب . إننى أخشى أن أحب .

ومر الأسبوع ، وجاء يوم الجمعة ، وتذكرت ما وقع بينى وبينها فى أسبوعنا الماضى ، وتذكرت قولها إنها غالبا ما تذهب فى العطلات إلى دار الكتب ، ثم خرجت إلى السطح ومكثت فيه مدة أتسمع على أسمعها تنادى أحدا أو أراها خارجة لحاجة ، لكننى لم أظفر بشىء .

فدخلت إلى غرفتي وسحبت الحذاء من تحت السرير ودسست إحدى رجلى في الجورب ، ثم توقفت فجأة عن إكمال لبسي وجعلت أسأل نفسي في جد صارم :

ـ ماذا أريد أن أفعل ؟ وما الذى أعنيه من هذه الحركات ؟!

وسرح خيالى فرأيتنى أستمع إلى خفقات حذائى فى أبهاء دار الكتب وطرقاتها الهادئة الرخامية ، حتى إذا ما أفضى بى المسير إلى إحدى القاعات وقفت برهة أمام إحدى المناضد ويداى معقودتان على صدرى وعيناى تجولان فى أحد الفهارس ، وهنالك على بعد قريب يلوح لى الوجه الذى أرجو « مطالعته » وأراها فأبتسم وتبتسم ... ثم ؟! .

وكفكفت خيالى فتوقف .. وأردت أن أخلع الجورب من رجلى اللابسة فإذا بى أمد يدى فألبس الفردة الأخرى . ولو أنك كنت على مقربة منى فرأيتنى من حيث لاأشعر لألفيتنى مكبا على ملابسى وأرتديها وأنا أهز كتفى وأمط شفتى بين كل فينة وفينة لأقنع نفسى بأنه لاخوف على . أنا ؟! . أنا أحب ؟! . إنها مجرد تسلية .

ثم استخرجت « الفلم » الذى احتفظت به ذاكرتى للدعاية ضد المرأة فاستعرضت حوادثه مبتدئا بأم ربيع ومنتهيا بأم فوزية . ثم أكملت لبسى بعد أن تحققت من سلامة مقاومتى ومن قوة مناعتى إزاء إصابات الهوى . وصفقت ورائى الباب وأحكمت إقفاله وهبطت السلم آخذا سمتى نحو دار الكتب .

لكننى ما بلغت باب البيت حتى صممت قاطعا على تغيير اتجاهى، لم يكن ذلك عن عزم ولا تدبير ، بل وقع فجأة لأننى سمعت صوتها الندى الهادىء من وراء باب شقتها المقفل وهى تتكلم بما لم أستطع أن أميزه . وجعلت بعد ذلك أنقل خطاى على أرض شارع لم أكن أقصد أن أسيرفيه ، على حين قد نشبت معركة خفية بين عزمى وقلبى ... كانا يتقارضان التهم ويتبادلان الإنذار ، وكنت أصغى إليهما وكأننى مخمور !! .

ـ ٦ ـ

طرقت على خادمتها الصغيرة باب حجرتى فى أصيل أحد الأيام، وما إن فتحت حتى رأيت فى أحد كفيها بضعة مسامير وفى يدها الأخرى مطرقة صغيرة ، ولم يسعنى إلا أن أفتح عينى من الدهشة لكنها قالت وهى تبتسم : إن سيدتى تستأذنك فى أن أدق هذه المسامير فى أسفل حافة نافذتك لتمد عليها هذه الخيوط التى فى جيبى ثم تربطها فى إطار الشرفة الحديدى لتعرش عليها شجرة اللبلاب ، وابتسمت قبل أن تقول مرة أخرى : هل تسمح ؟؟

وخليت بينها وبين الطريق ووقفت منتصبا فى وسط الحجرة تخالجنى إحساسات لست أدرى ما هى . لكننى كنت مأخوذا لأننى أحسست أنى على أبواب انقلاب نفسى فى طياته الخير أوالشر على كل حال . وأطلت الخادم من النافذة وهى واقفة على أطراف أصابعها ، وبدأت تدق أول مسمار وأنا لا أزال فى مكانى . وكان جانب وجهها فى متناول عينى فرأيتها تبتسم ، ثم اتسعت الابتسامة حتى انقلبت ضحكة خافتة ، ثم مرت فترة سكون أعقبت دق المسمار الأول وسبقت التهيؤ لدق الثانى ، ورفعت المطرقة فسمعت صوتا يتصاعد من بعيد

وهو يقول والضحك يقطع ما بين كلماته :

ـ احذرى أن تسقط المطرقة على رأسى . فتحركت من مكانى وأطللت بحذر فالتقى وجهى بوجه زينب منذ الوهلة الأولى . ويخيل إلى أننى ابتسمت فلقد رأيتها تبتسم . وحاولت بعد هذا أن أبرح مكانى متراجعا عن حافة الشباك لكننى عجزت ... كانت عيناها تناديانى . كنت فى موقف حمدت نفسى على أنها تشجعت فيه .. خيل إلى أن مغناطيسها سيستنزلنى إلى حيث تقف ، لولا أننى قاومت ... لكأن الأرض منحت جزءا من جاذبيتها لكثير من العيون ... آه ... لا تدعنى أسترسل فى هذا الحديث فإن الحوادث ستجبرنى على أن أقول كثيرا . والذى يعنينى الآن هو أن الخيوط امتدت من إطار نافذتى إلى إطار شرفتها ، وأننى كنت طول هذه الفترة أتبادل أنا وهى نظرات متفاهمة بليغة ، كان أشد ما سرنى منها هو أننى عرفت كيف أنظر إلى فتاة ، كيف أنقل ما فى نفسى إليها بعينى . ثم أكبت زينب على شجرة لبلاب غرستها فى نصف برميل ، وأخذت تثبت سوابق أغصانها على أطراف الخيوط ، وأومأت للخادمة بأن تنزل وأنا لاأزال حيث أنا واقف ، فلما تحولت الخادم عن مكانها رأيت زينب تتلفت حولها يمنة ويسرة ثم ترفع إلى صفحة وجهها المستدير ، وتجعل من كفيها حاجزا على جانب فمها لئلا يتناثر الصوت ، ثم تقول وعيناها تناغيانى : أقرأت شيئا من كتب الأدب ؟

فهززت رأسى أسفا ولم أتكلم . فقالت دون أن تتحول عن مكانها

ولا أن تمد يدا إلى ذؤابة من الشعر عبث بها الهواء :

ـ سأرسل إليك بكتاب ...

وسكتت ، ولمعت عيناها تهتفان بسؤال ، وتهيأت شفتاها لتنطقا به ، لكننى سارعت فقلت برقة :

ـ وأعدك بأننى سأقرؤه .

فضحكت ومرت بيدها على الخيوط دفعة واحدة تداعبها كما تداعب أصابع « البيان » فاهتز أعلاها باهتزاز أسفلها فلمعت فى رأسى فكرة .

ثم رأيتها تنفتل داخلة إلى الغرفة ، وسمعت باب الشرفة يقفل بعد حين لكننى لم أفارق مكانى .

ومضت فترة غير طويلة طرق بعدها بابى فخففت لأفتحه فإذا الخادم ماثلة وفى يمناها كتاب .

كنت أومن على الرغم من أننى لست أديبا بأن اختيار المرء قطعة من عقله وجزء من قلبه . ثم أوحت إلى نفسى أن اختيارها هذا لن يكون جزافا جاء كما اتفق ، بل لابد معه من شىء من التفكير ... وقد كان قصة .

قصة كتبها أديب غربى وترجمها أديب مصرى واقتنتها طالبة أديبة .قرأتها بتمهل وأنا كالذى يتمصص الشراب ليتعرف طعمه ، وكنت أفيق من استغراقى بين حين وحين فأجدنى أمثل المعانى بحركات من يدى ووجهى وفمى وعينى ، بل ومن كل جوارحى . وانتهيت منها

بعد منتصف الليل .

كانت بطلتها فتاة بنت دنياها من الأوهام الناعمة العريضة فدفنت في طياتها كما تندفن في الحرير دودة الحرير ، ثم ألقت على الناس مسئولية حياتها .

وأعجبتني القصة ، وآمنت بيني وبين نفسي بأن زينب صديقة لهذه الفتاة ، التقت بها على صفحات الكتاب كما يتلاقى الأصدقاء في ظلال الحدائق . ولا أنكر أنني أناشخصيا أعجبت ببعض الصفات فيها .

أعجبني فيها الوفاء وإن كان متطرفا ، وأعجبني الحب وإن كان عنيفا جارفا ، ورأيت طرازا من الناس يختارون أحبابهم بحاسة سادسة لايملكها غيرهم من الناس . يختارون . ثم لايعنيهم بعد ذلك أن يعجب العالمون من هذا الاختيار .

وفرغت من قراءتي والليل ساكن لاأسمع فيه من نأمة إلا صرير جندب واحد ، وحملت وجهي على كفي وأنا مسند مرفقي على المنضدة والكتاب مفتوح تحت نورمصباح واهن ضعيف .. وأخذني الشرود ولا أدري أين سرحت أفكاري لكنني أفقت على خاطر عجيب . هذه الكلمة في هذه الصفحة قد رسم تحتها خط خفيف بقلم الرصاص ، فقرأتها ، ثم تأملت الصفحة فرأيت كلمة أخرى ، فمن لي أن أتصفح الكتاب ، ثم أمسكت ورقة وقلما ويداي ترتجفان من الفكرة التي التمعت في ذهني وأخذت أجمع من الكلمات ماكان تحته خط وأنا

مستعجل فرح حريص ، وما أن فرغت حتى جعلت أناقش العبارات واحدة واحدة لأتذوق ماعسى أن يكون قد وجه إلى فيها :

« هل أنت مؤمن بفكرتى فى الحياة ؟ إن كنت مؤمنا بها فإننا سرعان مانتفق ، ولكن أتظن أننى سأكتب بها إليك ؟ .. لا ، .. لاتنتظر فإنها موضوع حديث طويل ».

« إن قلبى قد رحب بمقدمك منذ يومنا الأول ... نحن فى الطريق ولكم عيون » .

« أستطيع أن أكتب إليك طويلا ، ولكننى لست واثقة من أنك ستقرأ هذا ... فإلى فرصة أخرى » .

ثم أفقت من عجبى ودققت كفا بكف بعد أن فرغت من القراءة فإذا بى أقطع الغرفة جيئة وذهوبا ، ويداى معقودتان إلى خلفى ورأسى منكس وأذناى مصغيتان إلى غير حديث ، ولقد كنت ـ فى الحق ـ مستحضرا صورتها مجريا هذه العبارات على شفتيها ، جاعلا من نفسى رقيبا على قلبى فإذا به فى نشوة مذهولة ، ثم جلست إلى منضدتى وفى يدى قلم من لون يخالف لون قلمها وجعلت أنتقى من الكلمات فى نفس الكتاب ما أضع خطا تحته لتتكون لدى هذه الرسالة:

« يسرنى أن أعرف فكرتك عن الحياة ، وإن كنت قد عنيتنى بما فعلت فاخرجى إلى الشرفة إذا سكن الليل وهزى الخيوط التى تصل ما بين نافذتى وإطار شرفتك خيطا خيطا ! وأرجو أن نلتقى » .

أؤكد لك أننى كنت لاأعى ما أفعل . كنت كأننى أؤدى حركات

تلقائية ، كمن يمشي وهو نائم ، أو كالذي يجري وهو مذعور لكننى كنت أثوب إلى رشدى فترة لأسائل نفسى : ماذا أبتغى من وراء هذا ؟ فإذا وضعت يدى على جواب أو عدة أجوبة عمدت بعد قليل إلى تناسيها .

ثم سجا الليل . وأطل مساء ربيعى دافىء . وخطت المدينة نحو الهجوع شيئا فشيئا وأنا جالس إلى منضدتى بعد أن أعدت إلى زينب الكتاب فى أصيل ذلك اليوم بيد الخادم . نعم هدأت المدينة وسكنت الدنيا وأنا ملق بكل خواطرى إلى طرف خيط جعلته أمامى على المنضدة ليكون تحت بصرى لا يغيب ، وجعلت طرفه الثانى فى خيطين أو ثلاثة من تلك التى امتدت بين نافذتى وشرفتها لتعرش عليها شجرة اللبلاب . ومضى وقت طويل انتبهت بعده على تلوى الطرف الذى كنت أراقبه فعلمت أنها ظهرت فى الشرفة وأن يدها داعبت خيوط العريش فتحاملت على ساقين كادتا لا تحملانى وأطللت ، فرأيت بما أبقى الموقف من نور عينى شبحها يتخايل بين أصص الأزهار فى ثوب بدا أبيض تحت الظلام الخفيف . ورفعت عينىّ إلى وجهها المستدير فكأننى استقبلت بدرا . كانت فى موقفها كأنها طيف حلم لذيذ يجوس خلال جنة ... كانت ساحرة مسحورة ... خيل إلى أننى أسمع دقات قلبها وأحس لفح أنفاسها على خدى وبينى وبينها ثلاثة أمتار أو تزيد . وخيل إلى كذلك أن يد الليل تدفع كلا منا نحو صاحبه ... وأحسست أنى أريد أن أهوى إليها أو كأنها تريد أن تعرج إلى . لم أكن أستبين

ملامحها تماما ولم تكن تستبين ملامحى ولكننى شعرت أننا متفاهمان . كان نور المصباح يغمر ما ظهر من جسمى من النافذة أما هى فقد كانت بياضا يلمع بين خضرة وأزهار . قلت لها بصوت هامس مرتعش وقد جعلت من كفى حاجزا حول فمى : هل قرأت الرسالة ؟ فأجابتنى بهمس حوله سكون الليل إلى خدر تشربته المفاصل والأعضاء :

ـ أجل ... أجل ... أمى فى الحجرة المجاورة .. غدا الجمعة ... دار الكتب . وانسل الطيف الجميل من بين أغصان الجنة وسمعت صرير باب الشرفة وهو يقفل بحذر بالغ وانتهى الموقف لكننى بقيت متكئا على نافذتى لا أتحرك . فماذا كنت أنتظر ؟؟

***

ولقد كنا بدار الكتب فى ضحا ذلك اليوم أشبه شىء بشخصين جمعت بينهما مصادفة أو بحث من البحوث العلمية ، كنت أنا مكبا فى قلق وهى مكبة فى شغف ولهفة على لوحة الأرقام وراء الزجاج لتتأكد من أن كتابها المطلوب لم يسبقها باستعارته قارىء . كنت مخنوقا وكانت تتنفس بسهولة . كنت أستعجل الوقت الذى أستمع فيه إلى خفق أقدامنا متجاورة على رخام المماشى ونحن خارجان نريد وجه الخلاء ولكننى ظننتها بمعزل عن أفكارى فقلت بضجر ونحن نتصفح لوحة الأرقام :

ـ يخيل إلى أنك لن تحبى فى الدنيا سوى ما نحن بصدده الآن ؟؟

فنظرت إلى بعين فصيحة ثم ابتسمت ففهمت أنها تريد أن تقول :

ومانحن الآن بصدد شيء سواك . ولم يطل مكثنا . أو يخيل إلى أنه لم يطل بعد هذه التبصيرة... كنا نمشي في شوارع القاهرة ونختار منها ما تختاره أقدامنا ... كنا كمن مضى على تعارفهما عام ثم فرق بينهما الزمن ثم جمع ... لقد التقينا على شوق . وثرثرنا أول ما ثرثرنا عن طريقة تراسلنا وخطة تحادثنا من الشرفة فأطرينا طرافتها ونحن نضحك، وألفينا نفسنا فجأة في الخلاء ، وآن لنا أن نتحدث بشى من الحرية فلا نخاف أن يسمع أحد وراءنا لا نراه . كنا في طريق فرشتها أشعة الشمس وغرست على إفريزها فسائل النخيل عن يمين وشمال ، في إطار مستطيل تملأ مساحته الحشائش ، وغمرتنا من شمس الربيع حرارة حلوة بدا أثرها أول ما بدا في خديها ، لم يكن يفصل بيننا وبين النيل إلا متنزه ضيق العرض بحيث كانت صفحة مائه تلمع لأعيننا كالمرآة من تلافيف ذلك السور النباتي . وكان الطريق شبه خال على التقريب إلا من السيارات الطائشة التي تمرق إلى طيتها لا تتلبث ولاتتريث ، وإلا من بعض طيرلعلها الخطاطيف كانت متجهة إلى النهر لتنال من سمكه، ثم فراشات تهيم فوق رأسينا كأنها سكرى ... ثم أنا ... وهي ..

كنت صامتا مطرقا ناظرا إلى مواقع أقدامي على الأرض أما هي فكانت تقلب وجهها في السماء ، وأحسست في ذلك اليوم أن قلبي تسرى فيه حركة لا نراها ولكننا نحس أثرها . من نوع تلك التي تجرى في أكمام الزهر ... نراها في المساء مطبقة مقفلة ثم نراها مع الصباح مفتوحة واضحة الداخل وقد أكبت على قلبها نحلة . كنت أراقب قلبي

وأحس بسريان هذه الحركة فيه فشغلت بداخلى عن الخارج حتى أظلنا صمت لست أدري إلى أى حد طال . ثم أحسست صوتها يسترجعنى إلى عالم الخارج . قالت وهى تبتسم :

ـ لقد عددت أنا خطواتنا منذ انقطع بيننا حبل الحديث . لأنه لابد من شىء أتشاغل به . فنظرت إليها ولم أتكلم لأنها ما لبثت أن استطردت : وكأنى بك مشغول بنفس المهمة ، غير أننى أرى أن أحدنا يستطيع أن يقوم بهاوحده وبغير إرهاق . واتسعت ضحكتها حتى حفرت « النونتان » وكأنها ألهبت مشاعرى بهذه العبارة فألفيتنى أتدفق متحدثا لا أنى ولا أتلعثم ، قلت لها : إننى كنت أحلم بكل شىء إلا أن ينعكس ظلانا متجاورين تحت شمس الربيع على طريق واحد ، وإلا أن أحس الدوارمنذ الجرعة الأولى من هذه الكأس ، وإلا أن أحسن التحدث مع فتاة ! ثم قلت آخر ما قلت : ولعل أكبر ما سيطر على فى سكونى هذا الذى عبته ، هو تفكيرى فى أفكارى !!!

أذكر أننى تكلمت فى تدفق وفصاحة ... كنت لا أتلكأ ولاأنتظر حتى أبتلع ريقى كأننى ممثل حفظ دوره ... على أن قلبى قد كان يلقننى ولقد تبين لى فيما بعد أنه ماهر .

وجرها حديثى إلى أن تحدثنى عن أفكارها فى الحياة . ولقد كان لها فكرة عنها كما ادعت فى رسالتها الأولى ...

حدثتنى عيناها أنها خيالية متفائلة قبل أن تقول لى شيئا ، ثم جرى الحديث بيننا فتأكدت مما خمنت .. ملأت خياشيمها جيدا من عبير

الربيع وأرسلت نفسا طويلا كما يفعل الغريق أول ما يستطيع التنفس ثم قالت بهمسها الساحر ، ما أجمل الوجود ... أجل ... ما أجمل الحياة ؟! إننى دائما أتملقها .. فكرتى عنها أنها كشخص يجب ألاتغضبه لأننا لانستطيع على الإطلاق مقاطعته : فلماذا نغاضبه ونعود فنسترضيه ؟؟ وحتى الذين يقررون مقاطعته أجمع الناس على أنهم مغفلون ...

ــ وكيف ؟؟

ــ وكيف ؟ .. المنتحر مغفل .والمنزوى مغفل . وال ...

وكل من يقاوم قانونا من قوانينها الطبيعية مغفل ...

أليس هذا الذى تريدين أن تقوليه باختصار ؟ ولكن اسمحى لى أن أسألك : أى طرف منا يتملق الآخر ، أنحن الذين نتملق الحياة أم الحياة هى التى تتملقنا ؟ قلت أنت بالرأى الأول وأنا أقول بالنقيض ... إنا نصرخ ساعة نولد لأننا نضيق بها كما قال شعراؤنا الأقدمون ، فلا تلبث الحياة أن تتملقنا وتمسحنا حتى نبسم لها بعد أن ننال من لبن الأم جرعة أو جرعتين ثم تقسو علينا الحياة ... وقد تكون قسوتها باكرة فتسخر من ضعفنا ونحن أطفال ، وقد تؤجل مؤامراتها فلاتظهرها إلا ونحن فى ضعف الشيخوخة . وقد تكون بين بين فتفجعنا فى أحلام شبابنا ... ولاتنسى أن ترسل لنا ونحن فى سدف الظلام إشعاعا خفيفا من النور بعد إشعاع خفيف حتى لا نيأس .أما الذين تنقطع بهم أسباب الأمل فينتحرون فإن الناس يقولون بعدهم إنهم مغفلون ، ذلك لأن من

بقى يؤمل بالنيابة عمن مات ، ويزعمون أن الحلول التى كانوا يرجونها طرقت عليهم أبواب حجراتهم بنفسها ، بعد أن كانوا فى طريقهم إلى النهر بخمس دقائق ...فقط !!!

وضحكت مقهقا ولعل أطوار حياتى انطبعت على ملامح وجهى طورا بعد طور وأنا أتكلم ، فقد ألفيتها شبه مذهولة ، كان فمها نصف مفتوح وأهدابها ساكنة بسكون عينيها وكأنها تقول : مسكين ... إنك مريض !!

كانت تبتلع الحياة بسهولة كما تزدرد النشا المطبوخ ، أما أنا فكنت أتشمم الطعام وأتذوقه بطرف لسانى دون أن أمد يدى ، لذلك عجبنا عندما عرض كل منا فى طريق الآخر .

ولعلها أدركت أنها أمام حالة تدعوها إلى أن تعمل ثم لعلها كانت تستلذ هذا العمل كما يستطيب الغواص أن يغوص وراء الغريق . وبدا ذلك واضحا فى لهجتها :

ـ أؤكد لك أنك ستتملق الحياة بعد اليوم ، قد نحبها من أجل معنى واحد فيها ... معنى واحد نقضى عمرنا ونحن نطوف حوله فلا نحس تعباولاعرقا ... إن كنت حتى الآن لم تعثر عليه فإنك واجده فى ساعة من الساعات ... ستحب الأيام لأنهاوعاء تحمل فيه أمانيك ، وستحب الحياة لأنها مجموعة من الأيام .

يخيل إلى أنها كانت تقول لى : أحبها من أجلى فقد أحببتها من أجلك ، وخيل إلى أن اختلاج شفتها الخفيف كان يحمل فى ثناياه

شيئا من المخاوف ... لعلها خشيت أن تكون قد رأتنى في الوجود دون أن تقع عليها عيناى .

« إننى أحج هذا الطريق يا صديقى كلما مر على الزمن وزرت مدينة القاهرة ، فأمشى فيه مبطئا خافض البصر متسمعا إلى وقع أقدام وكأنها ستلحق بى بعد أن تخلفت لبعض شأنها » .

وأمسى المساء وهجعت قلعة الكبش فى ظلال المقطم وأنا سكران بذكريات الصباح . كانت أنفاس الربيع تسرى إلى أنفى من النافذة الغربية حاملة معها شذى خفيفا من أزهارها وصدى حلوا من حديثها وهى على القرب من فتحة الباب . وقد لبثت مستغرقا فى هذا وفى عدة صفحات من كتاب بين يدى ، حتى أخرجنى من سكونى صوت أعرفه ولاأنكره : لقد اعتاد راشد صديقى أن يعلن عن قدومه بطريقة غريبة طالما سرتنى وفرجت عن كربى ، كان يقف دائما عند رأس السلم قبل أن يدخل من باب السطح فيعزف على نايه لحنا كأنه تحية القدوم ، وأسمعه وأنا فى الحجرة فلا أتحرك من مكانى . لإعجابى بهذا الشذوذ الجميل . وخرجت من سكونى فى هذه الليلة على صوت هذا الناى ، كما حدث لى كثيرا من قبل ، ولكن أعصابى أنكرت نغمته . أحسست بانقباض غريب وتمنيت لو أنه سكت بل لقد هممت أن أفتح الباب بعنف لأشير إليه بأن يكف ، لكننى استعذت بالله من شياطين وساوسى .

ثم هدأت نفسى وسكنت بوادر الغيرة التى تحركت فى قلبى بعد

أن تركت صديقى يتكلم فلا أشاركه إلا بهزات رأسى ، على حين كنت أنا أفحصه جيدا ، ومن جديد بعينين تصورت أنهما عينا زينب ، فقلت فى نفسى ونظراتى إليه وحواشى شعورى وحدها معه ، إنه جميل .... إنه ذكى ... إنه فنان ، أما أنا فإنى لا أعرف ما أنا ؟! فأحسست أن صدعا يوشك أن ينجم فى جدار قلبى لكننى حلت بينه وبين أن يكون بحيلة لطيفة من تلك التى نصطنعها فى الحياة ، عندما ينقطع عنا تملقها أيانا فترة من الزمن . قلت : وهل خلت الدنيا فيما مضى من أمثال راشد ؟ . كلا بالطبع ... إذن فلقد اختارتنى زينب بناء على «مواصفات » وضعها لها قلبها فبحثت حتى عثرت على فى عالم الحقيقة .

ثم ابتسمت لنفسى . وظن راشد أننى أبسم مما يتكلم به ، فإذا به يقطب ويسألنى :

ـ هل ترى فى هذه المأساة ما يحمل على الضحك يا صديقى ؟!

فكدت أضحك ثانيا بعنف ، لكننى تمالكت نفسى وعدت أسأله : أية مأساة يا أخى هذه ؟ فقال : التى نتكلم فيها ... قلت : إننى أفهم ما تعنى ، لكننى قصدت أن أقول لك ليست المآسى والملاهى والدموع والضحكات فى الوجود إلا مسائل نسبية محضا ... فقاطعنى : إذن فأنت لاتعتبرها مأساة ؟! فقاطعته مسرعا لأتخلص من المواقف : وكيف ذلك ؟ أنا من رأيك ، ولا ريب ، لكن ألست معى فى أن فى كل مصيبة ناحية مضحكة ... دع الاستطراد يا راشد فهو الذى يرسبك فى

الامتحانات .. هيه ..

فأخذ يكمل ماقطع من حديثه وقد كنت أسمع إليه وأنا مرتاح .

إننا كثيرا ما نناقش الأمور يا صديقي بطريقة نبنيها على المغالطة حتى نصل بمنطقنا المصنوع إلى نتيجة ترضي نفوسنا . كأن تدور أيها السيد حول بيت حبيبتك بعد أن تدب بينكما جفوة مستعينا بالمصادفات على رؤيتها ، وتعينك المصادفة التى ألححت عليها فترى حبيبتك ثم تقول لنفسك : ماكنت أقصد هذا ، وهذا خارج عن إرادتى .

وطاردت الأيام فى سيرها فمضت أسابيع ... لم تكن نلتقى إلا قليلا ولانتحدث إلا حديثا خاطفا ، كأن كلا منا كان مشغولا بتفهم الخطوة الأولى التى خطاها نحو صاحبه ، على أننى كنت سعيدا ، لاتظنها سعادة من تلك التى تطير بالإنسان حتى يشقشق مع طيرالربيع ويمشى الهوينا بين تفاريق السحاب ، ولكنها من تلك التى تبعث فى النفس هدوءا يشبه السكرة ورضا فيه تطرح المستسلمين . حتى لقد عرفت فيما بعد أن طبعها المتأجج ومزاجها العاطفى الثائر ظننى فى طريق الهوى حائرا مدبرا أو مترددا .

ثم نامت ذكرياتى عن زوجة أبى ومشيلاتها فترة من الزمن . وألقيت عليها دثارا كثيفا من شغلى بزينب . لأننى كماقلت لك أقنعت نفسى بعنف أو بسهولة أنها أحبتنى بناء على « مواصفات » ومعنى ذلك بطبيعة الحال أنه لم يكن لى سابق ولن يكون لى لاحق . ومعنى ذلك أيضا أن قلبى كان أشبه بوعاء فرغ من تنظيفه ثم بدىء فى ملئه،

أو أن المناعة التى أكسبتنى إياها عقد نفسى بدأت تخف أوتضمحل وتزول .

ولاحظت بعد أيام شيئا عددته مفاجأة . لاحظت أن حجرة الاستقبال مفتوحة الشرفة من أول الليل ، وأن شعاعا من نور المصباح ينصب على بعض الأصص وعلى شجرة اللبلاب ، وأن صوتها يصعد إلى وانيا بعيدا لأسباب لست أدريها ، وأنه ليس هنالك أصوات ضيوف . وشغلنى الأمر حتى كأنه شطر من قضية قلبى . وأردت أن أعرف السبب فربطت الخيط فى حبال عريشة اللبلاب وجعلت طرفه أمامى ، ثم أخذت قطعة مربعة من الخشب لعلها قد نجت من مدفأة الشتاء ، وجعلت أدق بها أرض الحجرة دقا غير منتظم عمدت إلى أن يكون مدعاة للتساؤل ، وسكت ، فلم يمض كثير حتى تلوى طرف الخيط أمامى على المنضدة فعرفت أنها ظهرت فى الشرفة . قلت لها هامسا بعد أن نظرت نحو الغرب فى هلال هزيل . هل أزعجتك طرقاتى ؟! .

كانت رابطة شعرها بشريط من الحرير الأبيض ، وكان موقفها من الشرفة فى بقعة مظلمة لم يغمرها النور المنبعث من المصباح فى الحجرة. كان جسمها فى الظلام ورأسها فى مجال النور . كانت مائلة فى وقفتها ، ثانية نصف جسمها الأعلى إلى الجنب ، ويدها فى خصرها ووجهها إلى نافذتى ينصب عليه الضوء وتشرق فيه ابتسامة ، ويرف على رأسها بياض الحرير . هكذا استقبلتنى قبل أن أقول لها : هل أزعجتك طرقاتى ، ثم أخذت تهمس :

ـ غيرنا نظام الشقة وأصبحت هذه حجرتى ... أمسرور أنت ؟! .. سأعد خطواتك .. سنعيش معا على الرغم من السقف ... أليس فراشك إلى يمين الداخل ؟! .. سيكون سريرى إلى اليمين كذلك .. إن سكون الليل يرفع من خافت الأصوات .. طاب مساؤك ...

وانصرفت ، فأخذت أهمس كأننى مجنون : زينب ... زينب ألا تسمعين ، ولكنها لم تعد . فتركت موقفى من النافذة وعدت إلى وسط الحجرة حيث تناولت قطعة من الخشب وشرعت أهد بها السقف فوق رأسها هدا . يدى تدق وعينى تراقب اهتزاز الخيط على أديم المنضدة ، ثم آن له أن يهتز .

خرجت مبهورة الأنفاس من الضحك لاتستطيع أن تتكلم وتحدثت أنا فى هذه المرة ووقفت تستمع .. وليس من المهم أن أقول لك ماذا قلنا ... لقد قلنا كثيرا ، وأؤكد لك أن الكثير من هذا الكثيركان جد تافه ، لكنه كان يدخل على نفسينا السعادة . يخيل ألى أنه كان فى استطاعتنا فى هذه اللحظة أن نسكر بالماء حتى يغيب عنا وعينا ، وأن فى مقدورى أن أنزلق إليها على خيوط العريش الدقيقة الضعيفة فلاتنقطع لأننى كنت أخف من الفراش !!

على أننى تذكرت جد الحياة وقرب الامتحان وشماتة أم ربيع ، وخيبة أمل أبى ، وانكسار خالى ، وهلع أختى ، وجزع خالتى ، فعدت إلى الكتاب ، ولكن بعد أن أخرجتها وأدخلتها ونادتنى ثم ودعتنى عشر مرات .

وبدأت أتذوق طعم الحب فى مغزى أعمالها لافى ضغطة الأكف ولاتلاقى الشفاه ، ولقد كانت هذه الفترة أسعد فترات أيامى كنت فيها مرتقبا دائما وقوع شىء جديد ، وكانت أيامى كلها انتظارا لحادث لذيذ . ليس فى أوقات الناس ياصديقى أحلى من اللحظة التى تسبق القبلة ولا الساعة التى تسبق الخطبة ولا الليلة التى تسبق الزفاف ، فهل تحس هذا الذى أحسه ؟! .

أصبحت ذات صباح وخرجت من غرفتى فوجدت أربع أصص من الأزهار تحف بمدخل الباب اثنان عن يمين واثنان عن شمال فهل تتذوق مغزى هذا ؟ وأمسيت ذات مساء فإذا بطاقة من الزهرفى طريقى على مدخل السطح ، كانت على السور فى كوب من الماء لآخذها وأنا داخل فدفنت أنفى فيها برهة من الزمن وهى على منضدتى قبل أن أبدأ عملى . فهل تستعذب هذا ؟

وبدأت سوابق اللبلاب تزحف على العريش إلى جفاف نافذتى وتنفحنى قبل مشرق الشمس وتبخر الندى برائحة من زهرها النائم فاعتبرت هذا جزءا من تحيتها الصباحية الدائبة الدائمة حين تخرج إلى الشرفة بعد لبسها وقبل خروجها فتحيى بفترة من جفنيها وبسمة من شفتيها .

ثم تصرم العام وتركزت خواطر كل طالب فى محنة كل سنة ، أعنى الامتحانات . هل تذكر أننى فى امتحان البكالوريا وصديقى راشد كذلك ؟ .. لقد قضينا أمره وفرغنا من شأنه ، وكنت فى هذه

الليلة فى منزل راشد . كان يسكن وحده فى شقة صغيرة يقوم فيها على حاجاته غلام صغير . وكان صديقى فى هذه الليلة غير مرح ولامرتاح . مسه الخوف ، لامن شىء كما يقول . ولكن من معنى الفشل .

إنها التجربة الأخيرة ياحسنى ... أنظر.

ونظرت فإذا كتبه وبعض متاعه قد حزم استعدادا للرحيل . وأردف:

ـ لن ألح على هذه الشهادة أكثر من مرتين ... إن إجابتى على غيرما يرام ياصاحبى ، ولكننى واثق أن فى الحياة متحولا ومجالا . ربما نجحت فى غير المدرسة ...

فقلت له بتأثر بالغ : وما يدريك أنك لست من الناجحين ؟

فابتسم ، فعرفت كيف يقطر الأسى من بريق الابتسام فحولت الحديث إلى مجال آخر .

ثم أعلنت النتيجة ونحن فى القاهرة . وأشرق وجهى بنضرة الفرح لنجاحى ، ثم غام بكدرة الحزن لرسوب صديقى !! لم أر دمعا يترقرق فى عينيه قط لكننى خلت الدموع تترقرق فيهما فكدت أبكى له . قلت لنفسى : إنه غنى ... إنه مرن يستطيع أن يعمل أى عمل . ثم عدت فقلت : ولكن ... إنه فشل !!

وتناولت عشائى وقلبى مغمور فى إحساسات شتى ، كنت أمضغ آليا دون أن أحس للطعام طعما .. كنت أفكر فى الناس : نحن كقطع الشطرنج تنقلنا يد الأقدار على رقعة الوجود . أين سيكون صديقى ،

وفى أى بلد سيعمل ويقيم ، ثم متى نلتقى وعلى أية صورة ، ومن منا السعيد ومن منا الشقى ؟ .

وتوقفت عن المضغ فجأة وتدفق دمى كله نحو رأسى ، وتخيلت أننى مجنون ، أو أننى حيال مجنون ، فقد سمعت ناى صديق تنبعث أنغامه من ناحية السلم ، فقلت فى نفسى : لعله لا يعلم ، لكنى عدت فى الحال وتأكدت أنه يعلم كل شىء ... لقد كان يعزف على نايه وهويخطو نحو حجرتى ، لحنا صب فيه كل أحزانه . لم أكن سمعته من قبل فكأنه ادخره لمثل هذه الليلة ... كان دمعة تناغى ، أو كان نغمة تبكى . لاأستطيع أن أقول إلا هذا فإن الموسيقى لاتصور بالألفاظ . وأحببت الناى جدا منذ هذه الليلة ، وأيقنت أن نايا واحدا أبلغ من ألف ألف لسان . وأحببت راشدا ووددت لو أننى فديته . إنك لاترثى إلا للذين يستطيعون أن يعبروا عن آلامهم بأية صورة ، أما الباقون فإنهم كجوف الأرض تدوسه ولا نحس بأنه يتضرم على بعد قليل !!

ووقفت فى فتحة الباب أستقبله . ثم كانت المنضدة بيننا بعد برهة ونحن نشرب الشاى .وتحركت فى نفسى هموم الوداع القديمة فترقرقت فى عينى الدموع . قال راشد وهو يرتشف من فنجاله رشفة : ماذا بك ياحسنى . أمجنون أنت ؟ ما خلقت لنا هذه العيون لنذرف بها الدمع ولكن ... لنرى بها الأصدقاء . فأجبته وعيناى تضحكان وتبرقان بالدموع : حتى إذا ما غابوا بكينا ... أليس كذلك ؟!

ـ بلى ، هو كذلك ... ولكننى لاأحب أن أرى دمعا كما تعرف .

المهم ياصديقى أننى قررت الرحيل ... وغدا .. سأذهب إلى بلدى لأقضى يومين ، ثم أسافرإلى حيث لاأعلم الآن ... طبعا سأكتب إليك ... سنلتقى على صفحات الرسائل إن لم تجمعنا القاهرة ... لم أجن من هذه المدينة فاكهة طيبة إلا قلبك يا حسنى ، أما الباقى فقد كان مرتعا للآفات .

وكان يتكلم بصوت خافض فيه تهدج قليل ، ومن العجيب أن جوارحه كلها كانت تبكى ماعدا عينيه . مسكين !! يخيل إلى أنه كان كالحريق لاماء على القرب منه .قلت له مسرعا : كفى يا صديقى فما عدت أحتمل . فابتسم قائلا : ولكن بعد هذا الذى سأقول لك . وأخرج الناى من جيبه الداخلى ، ثم صفر صفرتين متعاقبتين ومد يده به إلى وهو يقول : هذه للذكرى !! إنه أعز ما أملك ... فمددت يدى فى هدوء وصمت وتناولته وكأننى مسحور ، وكانت عيوننا متقابلة شاخصة لا تطرق أهدابها . ولم يتمالك كل منا إلا أن يحتضن أخاه ويقبله فى أسف وحب ولهفة .

ثم غاب عن نطاق وجودى ، ولم تغب عنى ذكرياته ، ولست أنسى تاريخ رحيله عن القاهرةلأنه كان قد حفره على الناى !!

ـ ٧ ـ

أنا جد مشتاق إلى أن أعرف الحب !! .. أنا لست واثقا من نفسي ولا من النبضات الجديدة التى يرسلها قلبى ... أريد موقفا سافرا ألتمس للمحبين بعده الأعذار ... إننى حائر !!

وكانت إقامتى فى العاصمة بعد نجاحى شيئا لا أعرف مغزاه . كنت مربوطا إلى غرفتى لا أكاد أزايلها كما تربط السفينة بالمرساة على الشاطىء ، على أن هنالك شيئا كان يشغلنى بعد زينب ، وذلك هو ناى صديقى .

يسكن الليل وتهدأ الدنيا وتأوى قلعة الكبش باكرة إلى أحضان المقطم ، وتوصوص بعض طير فى ظلام الكهوف ، على حين تنصب أشعة القمر صافية بنفسجية فتلمع بها القلاع والتلاع فى الفضاء المتد. وأتملى المنظر فأشتاق إلى زينب ، فأناغيها برهة فى الشرفة ثم أدخل إلى غرفتى فلايستقر بى المكان ، وأحس كأن الناى ينادينى ، فأخرج إلى فضاء السطح ، ثم أضع فمى عليه لأعزف نغمات بدائية متعثرة مضطربة ، لكنها لا تخلو من اللذة .. وفى كل محاولة لذة . ثم وجدتنى مع الأيام أطيل الاستماع إلى النغمات فى المذياع وأنا فى

الطريق أو بيت صديق .. وأخذت أذنى تعى شيئا منها ، فعمدت إلى أن أحاكيها ، وقد نجحت نجاحا غير كبير لكنه شرح صدرى ... لقد أصبحت كصديقى وكصديقتى ... أصبح لى فى أوقات فراغى عمل فيه لذة وجمال .

وقررت السفر فى ضحا يوم من الأيام ، لم يعد هناك داع للبقاء فى القاهرة ... ليس هنالك من عمل فلماذا أقيم ؟ .. إذا فلأسافر غدا.

وخفق قلبى . وقلت فى نفسى : وإذن ينبغى أن أودعها ، ينبغى أن أودع الوجه الجميل قبل أن تقع عيناى على وجوه لاأحب أن أراها .

وألقيت إليها الخبر من النافذة وكانت تسقى شجرة اللبلاب ، فذعرت من المباغتة كأنما ألقيت على رأسها حجرا ، ثم أخذت تغدو وتروح بين الأصص وتقلب الأزهار كأنها تناغيها . كل ذلك ولم ترفع إلى طرفا ولم تتجه إلى بكلمة . فأحسست أن حرارة الموقف أخذت تفتر قليلا قليلا حتى استحالت إلى مايشبه الثلج . فلم يسعنى إلا أن أرتدى ملابسى بعد برهة ثم أخرج إلى الشارع ، وعدت فى أخريات النهار فذكرت أننى نسيت طعام غدائى . وقد حاولت بقية اليوم ألا أذهب نحو النافذة وألا أطل عل شرفتها ، كأنى أردت أن أرى ماذا تعنيه . إن طبعها العاطفى ومزاجها النارى كانا سكونا وكانا رمادا ، ساعة ألقيت عليها الخبر فياترى ما الذى تعنيه ؟!

وسكن الليل وكان ليل صيف لاقمر فيه . وكنت جالسا وسط

حجرتى تمثالا صامتا لا ينطق وجهه إلا بمعنى الانتظار. كنت مرتقبا مرهف الحس ، ومضى وقت طويل لم أسمع فيه حركة ولا همسة . وخطر لى أن أتراجع فلا أسافر حتى ألقاها وأستبطن خفى أمرها لكننى ابتسمت ساخرا من نفسى وأنكرت على قلبى هذا الاهتمام . وصافحت نسمات الليل وجهى المصمت فتحركت من مكانى . لم أفعل شيئا سوى أننى أخذت الخيط وربطته فى العريش وجعلت أرقب طرفه وأنا أقول : هذا ظلم ... لعلها حركت عريشة اللبلاب ظنا أننى فى انتظارها ، ولم تتحول عن الشرفة إلا بعد يأسها منى ، وربما تعود . وحملقت فى الخيط أمامى على المنضدة وطالت حملقتى فخيل إلى أنه يتلوى ببطء فقمت أنظرفلم أسمع سوى صرير الجنادب فعدت مغيظا حانقا ، وبحثت عن قطعة الخشب المعهودة لأدق بها السقف على رأسها لكننى عدت فاستكبرت واؤكد لك أن خطواتى فى هذه الليلة كانت تقلق حتى أشد الناس هدوءا وصبرا . وفرغت من تقلبى واضطرابى فإذا بالخيط يهتز فى هذه المرة اهتزازا لا مراء فيه .

وعن لى ألا أطل عليها ولكننى وجدتنى مدفوعا بما لا أعرفه .

كانت فى ثياب تبدو فى ظلام الليل سوداء. لم أر على البعد شيئا أبيض إلا هالة مستدير ة مثل الوجه وشريطا من الحرير يرف فى حلكة الشعر .

قلت لها أول ما تكلمت : باردة ...إنسانة لا حرارة فيها ... سأدخل .. أجل سأدخل ، ولكننى لم أزايل مكانى !! وسمعتها تهمس

بنبرة موسيقية مرتعشة خلت أن الليل كله قد استحال إلى إذن كبيرة ليسمعها :

ـ كنت أريد أن أقاوم ...جزعت من سفرك ... لم أنم ... عددت خطواتك ... إلى متى ستغيب ؟! ...

وكلاما آخر قبل هذا أو فى وسطه أو فى نهايته ، لست أدرى ، فلقد مرت بى لحظة أحسست فيها أن أذنى قد صب فيهما رصاص مذاب فلم أسمع شيئا . بيد أننى كنت أرى تحرك كفها فى الظلام وكأنها سهم مضىء ، وكدت لا أتمالك نفسى وتملل لسانى وأوشك أن يقول لها : أحبك ... ولكننى كففت .. لاأريد أن أسلم !!

ووسوست سوابق اللبلاب على خيوط العريش بنسمة عابرة في تلك اللحظة التى ساد بيننا الصمت فيها ، ثم رأيتنى بعدها استأنف الهمس : كنت أريد أن أتحدث إليك .

ـ متى ؟

ـ فى أى ساعة من النهار ، أو ...

ـ من الليل؟!

ـ ....

ـ خطر !! .. متى ستسافر ؟

ـ قبل الشروق .

ـ راقب الخيط مرة أخرى .

ثم ظهرت فى الشرفة فأطللت عليها فإذا بها تهتف : أستودعك

الله !! ولم أسمع بعدها إلا الصرير الخفيف .

لم يكن قرارى أخيرا وأستطيع أن أختار أى قطار ، إلا أنه لم يكن قطار الصباح الباكركما ادعيت ليلة أمس . وقد تخلفت عنه محاورا نفسى مقنعا إياها أننى متعب لأننى لم أنم ليلة البارحة .

لقد فكرت ليلة أخرى فى أشياء كثيرة : فكرت فى ذلك المعنى الذى كانت تقاومه زينب وفكرت فى معنى جزعها ، واشتقت إلى أن أسمع كلمة واضحة من فمها فإننى ظمآن إلى مثلها . ثم فكرت أخيرا فيما عسى أن تكون قد عملته بعد أن قالت لى : راقب الخط مرة أخرى وقبل أن تودعنى وتدخل .أحسست أهذا كله أثقال أعجز عن حملها وأنا مسافر ، ولذلك قررت أن أتخفف منها .

وكانت مفاجأة حين رأت بعد الشروق نافذتى مفتوحة ، وحين التقى وجهانا فقالت ملامحها الفصيحة : مجنون .. ثم رسمت بسبابتيها رقم « أحد عشر » إشارة إلى أننا سنلتقى ، فأخذت أدور فى الغرفة أقطع الوقت وأعد البلاط وخشب السقف وأعزف على الناى وأقلب متاعى الذى حزمته ، وأعمل أعمالا لا مغزى لها حتى تحين الساعة .

آه .. إن موعد لقاء جميل لايتجاوز ثانية واحدة لكفيل بأن يستهلك فى حياتنا شهرا .

وعبرت عتبة بابى للمرة الأولى فى حياة سكناى ، وفصلت بينى وبينها المنضدة الصغيرة وكل منا على كرسيه . وما كاد المجلس يستقر بها حتى رأيتها تتلفت وتقول : لن يطول مكثى ..لن تقرنى أمى على

ما فعلت ... إن تصرفى هذا كفيل بأن يجعلها تكرهنى ... هل ستكتب إلى ؟ .. ثم سكتت وتكلمت أنفاسها التى تلفح وجهى ، كنت تمثالا من التأمل وكانت تمثالا من الخوف ، كانت ذعرا جميلا ولهفة محبوبة . كانت أذرعنا متربعة علي المنضدة فى قرب شديد فجعلت أتأمل بشرتها الناصعة وكفها الصغيرة وأناملها الدقيقة المستطيلة التى ذكرتنى بالشموع الصغيرة التى يحملها الأطفال فى رمضان ، وقد قر قرارى ـ ولكن بعد تفكير ـ على أن هذه اليد الجميلة يجب أن تلمس ! فلمستها بحركة تشبه أن تكون غير مقصودة فلم تنقلها ولم تحولها فأخذت كفها بين كفى وشرعنا نتكلم . قلت : كنت أريد أن أتحدث إليك بشىء ولكننى نسيته . فابتسمت :

ـ كان يجب أن تدون كل ما يعن لك فى ورقة ...لاتقل شيئا فإننى أعرف كل ما تريد أن تقول ... وسنقول كثيرا كثيرا إذا امتد بنا العمر . أليس كذلك ؟! وابتلعت ريقها وهممت أنا أن أستولى على حبل الحديث لكنها سبقتنى وقالت وقد أولتنى صفحة خدها محولة بصرها إلى ناحية الباب :

ـ آه .. غلطة واحدة .. أعلم هذا « وانبهرت أنفاسها حتى خلت أنها ستبكى » غلطة واحدة أن تسارع الفتاة فتقول لرجل : إننى أحبك وقد يكون ذلك مؤثرا جدا بالنسبة إلى بعض القلوب .. وقد يقع العكس ! .

ثم سكتت ولم تستقبلنى بوجهها ثانيا ، بل ظلت على الوضع الذى

وصفته لك ، وخيل إلى أنها ستتجمد وهى هكذا لأن كفها التى لاتزال فى يدى جرت فيها برودة شديدة . فارتبكت وتوهمت حين غشانا السكوت أن أقداما كثيرة تصعد السلم فى طريقها إلينا ، ثم عدت فنسيت المخاوف ، وتركزت مشاعرى فى جمالها الحزين وحسنها الخائف فأمسكت ذقنها وحولت وجهها إلى . والتقى ناظرانا وجعل كل منا يتأمل عينى صاحبه حتى لكأنى أعد أهدابها ، ثم ... ثم اجتذبنى المغناطيس !! لا أدرى كيف التقت شفتانا ، ولو كنت أدرى لترددت !!

كان اعترافا من غير كلام ، وكانت مكاشفة من غير حديث ، ومع ذلك ظلت أذنى ظمأى إلى أن تسمع من فمها كلمة ..

غريب !! لكأننى كنت فى صحراء الحياة أمشى عارى الرأس حافى القدمين حتى وصل العطش ، وبلغ الأوار منى هذه الغاية . فأردت أن أؤكد العمل بالقول والناس إنما يؤكدون القول بالعمل !!

وأخيرا قلت لها : أحبك !! فأجابت وهى تسبل من أهدابها وتنظر فى كفيها : أحبك !!

***

كان يوم سفرى كله امتدادا لهذا الموقف الحبيب . كنت فى طريقى إلى المحط وفى مجلسى من القطار وفى موقفى إلى نافذته ، أعيش فى هذه اللحظة الأخيرة . إنا فى بعض الأحيان يا صديقى نفعل ما قد ظنناه مستحيلا ، ونفعله بكل بساطة ومن حيث لاندرى .. لقد قلت للزمان قف ! فوقف الزمان حتى لكأن زمامه فى يمينى . وأؤكد لك



لا تقل شيئا فإننى أعرف كل ما تريد أن تقول ...

أننى لم أفق من نشوتى إلا على وجه أم ربيع ونحن فى القرية .

كان أبى جد مسرور بنجاحى كما كان جد مشتاق إلى لقائى .. أما زوجة أبى فقد بدأ الزمن يأكل منها ، ولاحت على وجهها بوادر الهزيمة حين بصرت باطراد نجاحى ، فعمدت منذ ذلك الحين إلى ألا تبادئنى بشر وألا تكاشفنى بنظراتها الحاقدة ، فكنت لا أراها منها إلا إذا ضبطتها خلسة وهى متلبسة بها فأراها تسارع إلى استرجاعها فى شىء من حذر وضيق .

وتحدثت مع أبى فى أمر مستقبلى ، وشربت من عينيه حنانا لم تفض به يده ولالسانه من قبل . وأنا واثق تماما ولا أشك فى أن أبى كان فى ذلك العام على أتم الاستعداد لأن يمنحنى من حنانه فوق كل ما أرجو ولقد تراءى لى هذا فى عينيه واضحا بلا لبس ولاغموض ، ولكن طبيعة التحجز الذى فرضه على فى معاملتى إياه ، وطبيعة خلقه العنيد الذى لايتراجع كانتا كفيلتين بألا يزول ما بينى وبينه من سدود .

وأما السعادة العظمى التى شممت ريحها وأنا فى القرية فلقد كانت فى قربى من أختى هنية وفى مداعبتى أطفالها ، ثم فى قربى من خالى ، ثم فى سخريتى بينى وبين نفسى من شارب زوج خالتى ، لأن المشيب قد دب فيه . ولم تعد النظرات التى كان يصوبها إلى من خلاله فى حدة الزمن الذى فات ولافى نفاذة فقد فترت من وميضها الأيام .

وأما خالتى فإنى أود أن تعيش طويلا .

على أن المتعة الحقيقية لقلبى قد كانت فى الرسائل التى أتلقاها

من زينب ...

كنت أعرف خطابها بلون غلافه الوردى الخفيف الجميل الذى يذكرنى بأنفاس الربيع . كنت أذوق فى كل كلمة مغزى وطعما حتى فى التى لاتفهم إلابسواها ، وكنت أقول بعد كل رسالة أقرؤها وأنا بعيد عنها : أحبك . وقد كان القلب يتقن إخراجها أكثرمما كان يفعل بين يديها . كانت تصف لى نافذتى المغلقة وكيف أنها تراها من شرفتها وكيف تحس أن بابا كبيرا ينصفق فى قلبها كلما وقع بصرها على نافذتى . وكيف تحرك خيوط العريش متوهمة أننى سأطل عليها .

كانت أديبة وأيقنت هذا عندما كتبت إلى ـ كانت تصب معانيها فى القلب صبا ، ولكنى لا أدرى لم حدث بيننا هذا الذى حدث ؟! إننى خجلان ولكننى ندمت . وهذه حزمة رسائلها الوردية أحتفظ بها وأذود عنها يد الزمان .. إلى أن أموت .

لن أدع الذكرى تقطع على الحديث فلعلك مشتاق إلى أن تعرف كيف كانت رسائلى تصل إليها . كانت طريقة بديعة رسمناها معا ونحن فى غرفتى ، وضحكت لها زينب وحبات الدموع عالقة بأهدابها الوطفاء .

كانت حقيبة سفرى الحائلة القديمة فى يسراى وأنا أطرق باب صاحبة المنزل الذى أسكنه قبل أن أهبط السلم ، وفتحت زينب فطلبت منها بكل وقار أن أقابل أمها . فانفلتت إلى الداخل وهى تكتم ابتسامتها . ثم خرجت السيدة بوجهها الطويل الساهم وجدها القوى

الصارم . فألقيت عليها كلاما جملته أننى مسافر ، وأن خطابات قد تأتى إلى هنا باسمى ، وقد كانت من قبل تصل إلى عن طريق المدرسة، وأرجو أن تحفظوها عندكم ولاتحولوها حتى أعود ، وشكرت لها فضلها ثم تقبلت الوداع من عينى زينب وهى منى على بعد قريب .

وهكذا كانت تصل إليها الرسائل ، وكانت هى التى تتولى حفظها عن أمها بطبيعة الحال . فإذا مااختلت بإحداها أجرت على صمغ الغلاف أصبعها المبلولة ثم قربته من لهب خفيف ، ثم أخذت الرسالة من داخله وأحلت محلها ورقة بيضاء ، ثم أعادت لصق الغلاف عليها كما كان وجعلته فى مكان قريب من عين أمها .

كنت أصف لها ما أجده منها وما أحسه بسببها وصفا يشفع له بين يديها أننى لا أجيد الحديث كما تجيده هى . كنت فيه أشبه بالطفل الذى يريد أن يحدد موضع ألم داخلى فلاتسعفه ثروته اللغوية ، لكنها تتأثر بمقالى كما نتأثر نحن بإشارات الأطفال .

قلت لها فى آخر أحد خطاباتى : لاتنتظرينى فإننى لن أعود إليك قبل أسبوعين ... ثم كنت فى أصيل اليوم التالى لتسلمها الخطاب أنقل قدمى على أرض قلعة الكبش وأنا فى طريقى إلى مسكنى وعيناى تنهبان موقع الشرفة . وكانت واقفة وظهرها إلى الإطار الحديدى وعيناها نحو النافذة وفى يديها كتاب ، وحمدت الله على أنها لم تنتبه لمقدمى فقد كنت أريدها مفاجأة ، وماهى إلا برهة حتى كانت يداى المرتعشتان تفتحان النافذة ، وأفاقت على صوت المصاريع ورفعت

بصرها فإذا الكتاب يسقط من يدها . ثم ثاب إليها رشدها فأشرق وجهها بابتسامة عريضة ..ثم شحن الهواء بيتنا بالقبل !!

لشد ماكانت فرحة مسرورة حين التقينا فأخبرتها أننى سأدخل كلية الهندسة ـ ولم يكن فرحى بها بمقدار فرحها بى حين أخبرتنى أنها ستدرس سنتين إضافيتين بعد أن نالت شهادة الكفاءة . وقد تخيلت ساعتئذ أنها تريد أن تقول :

إننى سأعمل على ألا يكون البون واسعا بين العقليتين !!

ثم بدأ العام ، ولذ لى أننى أدرس الهندسة . واطردت الأيام حلوة صافية كصفحة الجدول الرقراق طوال الخريف ومدة الشتاء . وأستطيع أن أعتبر هذه الفترة هى المدة الحقيقية التى عاملت زينب فيها رجلا له قلب ، أو رجلا قلبه كقلوب الناس علق فى صدره ليؤدى مهمة القلوب على الأرض ... كنا سعداء .

كانت أمسياتنا حديثا ونجوى ولقاء فى المنزل إذا تيسر اللقاء ، وكانت غدواتنا بسمات وسلاما ، كنت أحس أن هناك حنانا على القرب منى ، وأجد لذة لاتعدلها لذة فى أن تسألنى كلما سنحت لها فرصة : أين طال سهرك ليلة أمس ؟ ومن هؤلاء الذين تزورهم ! ولماذا بقيت خطواتك مضطربة على أرض الغرفة قدرا طويلا من الليل ؟ هل كنت مريضا ؟ ولماذا رأيت على وجهك تجهما وسهوما ، هل أحسست منى شيئا يضايقك ؟؟ إن نغمات نايك تخطو نحو التقدم وتهدهدنى وأنا فى فراشى حتى أنام . لقد عشت جزءا من حياتى قبل أن تبدو أنت

على أفقى لكننى أسائل نفسى اليوم كيف تأتى لى أن أعيشه بغير غذاء . إن صيام قلبى قد امتد سنوات طويلة ولكن ليت شعرى كيف يكون وجودى بعد ذلك إذا لم تكن أنت فيه ؟! لايسخر من السكران إلا من لا يشرب الخمر !! أليس كذلك يا صديقى ؟.

وهكذا كانت حياتى .. حب وشعر وموسيقى .. وأنوار وأزهار ، وتجردمن المادة بحيث لم يكن أحدنا يحس جسم صاحبه إلا فى أعقاب القبلة الطويلة ، وأذكت زينب حبها بما جعلت تقرؤه كل يوم من روايات تستعير أثواب أبطالها بطلة بطلة كلما التقينا . كانت شعلة متأججة من الحب والوفاء . كانت كما تقول تنقصها الفرصة التى تمكنها من أن تبرهن لى على فنائها فى واستعدادها لتقبل الموت إذا كان الموت من أسباب حياتى . وكانت تتمنى أن تسنح لها هذه الفرصة .وكنت آخذ هذه القضايا مأخذا سهلا فأتقبلها بلا مناقشة ولامراء ، لأننى كنت جائع القلب فلم أتساءل من أين هذا الطعام ، ولأن ذكرياتى عن أم ربيع وقريناتها كانت تغط فى سبات عميق .

كنا نسير فى طريق الحب متعانقين متدافعين ، شغل كل منا صاحبه عن أن نتساءل : إلى أين المسير ؟! فلم يحدث مرة أن لمحت لى بالزواج ولالوحت لى بيوم الفراق حتى جعلتنى أعيش معها فى نشوة خالصة .

وعلى هذا النحو تقضى الخريف وفصل الشتاء ، أعنى النصف الأول من أولى سنواتى فى الهندسة . ولو سألتنى اليوم وأنا فى ذروة

شبابى عن أسعد الأيام التى مرت بى فى حياتى لقلت لك : إنها كانت خريفا وشتاء .

كانت فى الأيام التى خدرت فيها عقارب الوساوس فى قلبى المنكود أيام سرت فى طريق عمرى بوجهى لا بظهرى لا أنظر ما فات .

ثم بدأت سحابات ظنناها وردية تلوح على أفق علاقتنا ، وأخذت تدنو لعيوننا قليلا قليلا فإذا بها غير التى كنا نراها .. صديقى : حذار أن تجور على فى حكمك وإلا توقفت أن أقص عليك ، إننا قد نجور على أنفسنا فى أحكامنا أمام الناس لنتيح للسامع فرصة أن يصدر علينا حكما أخف من حكمنا ، أما أن يجور علينا أحد فهذا ما لانرتضيه .

وخلا بنا المكان فى أخريات الشتاء ، وفى يوم كان كأن أذيال نسماته طرزت بأزهار الربيع . كانت شمس ذلك النهار محلقة على الأفق الغربى بحيث تكاد تخطفها باليد ، وبدت تلال المقطم تحت هذا الشعاع الفاتن أضواء وظلالا ، وحتى شجرة اللبلاب التى غسلت أوراقها أمطار الفصل كانت خضرة وعبيرا ، وكانت زينب فى شرفتها وأنا فى نافذتى بحيث تتراءى من خلال الغصون التى حلت دائما بينها وبين أن تتشابك تماما حتى لا تحجبها عنى . وجعلنا نتكلم ، ولم يكن يبدو عليها أنها تخاف أحدا فى داخل الشقة . ولست أدرى لم آثرت ألا أستوضحها الأمركأننى ضننت بلذتى أن يكدرها على هذا السؤال .

وطال همسنا ، ثم بدأ يتحول إلى حديث يقرب أن يكون عاديا عندما نشط الهواء عند الغروب فحرك الأغصان وأقلق مصاريع النوافذ . ثم أرخيت أستار الليل فلم توقد مصباحها ولم أوقد مصباحى ، وبقينا فى الظلام روحين لا يضل كل عن مكان صاحبه .

ولم يمض وقت طويل حتى ألقيتنى عاجزا عن أن أسمع ماتحدثنى به ورأيتها عاجزة كذلك ، لأن النسيم قد تحول إلى ريح متقطعة سريعة رعناء كانت تقف عل أبواب الكهوف فى الجبل برهة لتصرخ ثم تمضى، وأحسست شوقا داخليا إلى قربها منى وتخيلت أن الكلام تافه حتى لو امتد بنا إلى مطلع الفجر ، وانتهزت فرصة هدوء الصفير فيها وقلت لها وأنا فى النافذة :

ـ هل نفد كل ما ادخرته من كلام ؟؟.

ـ مطلقا ...

ـ إذن فلماذا لانتكلم ونحن فى غير هذا الموضع ؟.

وشجعنى الظلام على أن أقول ماقلت ، لأننى كنت كمن يتكلم بأمر عظيم وهومطرق حتى لا يلتقى نظره بنظر محدثه . وسادتنا بعد هذا فترة صمت رهيبة مذعورة لم يقطعها إلا تنهيدة من زينب اتصل آخرها بأول حركة من وسوسة الورق ، وزفيف الريح . وخيل إلى بعد ذلك أن الليل قد تحول إلى عازف عظيم يحمل على ذراعه « كمانا » مسحورا يوقع به لحن اللقاء . ثم خيل إلى أن الأضواء التى تلمع فى سماء القاهرة تحت بصرى أخذت تتوالى فى الاختفاء ضوءا فى إثر

ضوء ، وأن الوجود كله قد نام حتى لا يعكر علينا صفونا إنسان ..

كانت هذه النغمات الخيالية لا تزال تنصب فى أذنى حين تركت موقفى من النافذة متجها لوسط الغرفة ، وكان الباب مفتوحا على ، فكنت أرى منه رقعة السطح حتى أول السلم .

وفجأة هممت أن أحبس أنفاس من الفرح والخوف والدهشة والتردد ، كانت تخطو فى طريقها بحذر جميل يذكر من يراه بخطوات « فينوس » على جبل « الأولب » ، كانت طيف خيال سيستحيل حتما إلى حقيقة ...

ووقفت على عتبة الباب قليلا ثم هتفت بصوت خافت : لم لم توقد المصباح ؟! . فأوقدته ثم جلسنا حيث كنا دائما نجلس ، بينى وبينها المنضدة الصغرى ، ويغمر جسدينا ذلك النور الضعيف .

واشتد عزف الليل على كمانه المسحور فسرت النغمات فى الأعصاب وصنفت الكائنات فصارت أزواجا ، وجعل كل نصف يناجى نصفه الثانى بهمس عجيب ... وأطلق الربيع بواكير بخوره فى هذه اللحظة فعطر نشوة الدنيا ، واستحال الظلام إلى ستر من الحرير ترف مع النسيم وترقص مع الأنغام . وأحسست أنا وهى أننا جزء من الكون أو كأن الطبيعة تآمرت علينا ... كنت أقرأ فى عينيها كتابا مفتوحا قرأت مثله فى عينى ... لم أكن أنا أنا ، ولم تكن هى هى ... كنا معدنين فى سعير المنجم لابد أن تخلط النار عنصرينا ... لم أكن أنا فى هذه الحالة صاحب فكرة وإنما كنت فى الدوامة أدور معها حيث

تدور ، أما هى فقد كانت على النقيض ... استخلصت شفتيها من قبلتى فشرعت تقول بهمس مرتعش وهى مطرقة إلى المنضدة ، متشاغلة بما ترسمه عليها بإصبعها من حروف :

ـ هل تؤمن بفكرتى فيه ؟ قلت : فى ماذا ؟ قالت : فى الحب؟! .. الحب رق وعبودية اختيارية ... وأشد العبيد طاعة لمولاه هو أجدرهم بأن يسمى حبيبا . وسكتت ، ولكنها لم تكف عن تحريك يدها فبقيت كأنها تكتب .

ورأيت بعد برهة مفاتيح الكنوز فى يمينى .. لم يستعص على باب ، لا ، ولم يزجرنى حارس . وكانت عيناها تمنحانى وتدفعانى إلى الأمام ، وتسقيانى خمرا أستعين بها على المخاوف حتى لا أنكص ... ولكن ... آه !! .. لاتدع خيالك يجمح بك ، فقد كنت نصف كريم !!



استخلصت شفتيها من قبلتى وشرعت
تقول بهمس مرتعش وهى مطرقة ...

ـ ٨ ـ

أكدت لى فى لقائنا التالى أنها نامت ملء جفنيها ، وأكدت أنا لها مثل هذا ولكننى لم أكن صادقا !!

كانت تريد أن تحقق لى السعادة بأى وضع من الأوضاع ولكنها تغيرت فى ناظرى . لم يعد للينبوع ذلك البريق الأخاذ الذى كانت النفس تتحرق لهفة إلى معينه . وكانت زينب تعتقد أن قلبى يخطو إليها خطوتين كلما قطعت هى فى طريقها إلى إرضائى خطوة واحدة .. مسكينة !! لقد كانت مخدوعة ، وفى الحياة كثير من الناس المخدوعين ... إننى أعرف نفسى وقد وصفتها لك من قبل : إننى هادىء الظاهر مضطرم الباطن كأننى مستنقع تغطى خضرة البشنين كدرة مائه .

وأفاقت عقارب الوساوس من خدرها فدبت على أديم قلبى وثارت الذكريات وتحرك الماضى من سباته ، وجعلت أذكر أم ربيع كل ليلة قبل منامى وأذكر قرينات أم ربيع كلما سمعت صوت زينب يتصاعد من الشرفة أو من مسقط السلم .

لم أعد أشد الخيط كثيرا إلى عريشة اللبلاب ، ولم أعد أقلق سكون الليل بدق أرض الغرفة ، وحتى الناى ما كنت أعزف عليه إلا

لماما . أصبحت أرى فيى النجوى والحديث والميعاد واللقاء ، مضيعة لوقت الطالب ومشهدا يسوده ويشوبه التكلف من ناحيتى وعدم الصراحة . ولم تعجبنى هذه الريح الرخاء التى أصبحت فى مهبها كأننى لا أستطيع أن أعيش فى بلهنية ... كنت متقززا ، أو كأننى فاتر ، وإن كنت نصف كريم : كنت أريد غير الذى كان وإن دلت على غيره الظواهر، كان داخلى مشحونا بصور الخيانة فما كان ينبغى أن تدللنى . كان من الخير لها ولى أن تدعنى فى النار والإعصار . ليتها كانت معقدة ملتوية ولو معى أنا وحدى ... لو أنها حملتنى على سفود وعرضتنى طويلا للجمر ، لكان من المحتمل جدا أن يتغير الموقف ... ليس كل رجل يقدر معنى التضحية وليس كل رجل يفهم معنى البذل ولو أنها لم تبلغ فى بذلها الذروة !!

وجعلت أسائل نفسى : هل أحبها ؟ فيكون الجواب : إننى لا أكرهها !! ثم أناقش القضية بشكل آخر فأقول : لقد كنت حبيبها عن طريق المصادفة ... وهكذا شاءت الظروف . أما أنها أحبتنى بناء على « مواصفات » فهذا غير معقول ... وهل أحببتها أنا بناء على « مواصفات » وضعها قلبى ؟؟

ولاحظت مع الأيام أنها تبذل فى كل لقاء جهدا كبيرا لئلا يسترخى حبل الحديث بينى وبينها ، كانت كأنها ترعى مريضا عزيزا لأن الذعر كان يلون جمالها كلما رأت على وجهى مسحة من السهوم .

ولم تعد تذكر لى شيئا عن خوفها من أمها ولم تتعرض بعد ذلك

إلى ماعسى أن يكون قد جال بذهن أمها عنا . وقد فكرت فى هذا مرتين أو ثلاثا فرأيت ظلالا من الشك وسوادا من الريبة يرين على قلبى ، وخيل إلى أن هذا وضع غير طبيعى وأن والدتها تعلم من أمرنا الكثير وأننى أنتقل قدمى على أرض زرعت بالألغام . ثم استولت على هذه الفكرة وكدت أصبح رقيقا لها ومنذ ذلك الحين تبخرت بقية الرثاء التى أحملها لهذه الفتاة فى طيات قلبى : لم أعد أقول : إنها مسكينة ولامخدوعة ، بل كنت فى كثير من الأحيان أتصور مشرطا فى الشفتين الرقيقتين وهما تهويان نحو فمى ، مشرطا حادا سينال به صاحبه ما لاحق له فيه !!

وتطور الأمر إلى أبعد من هذا .

وجدتنى فى كثير من الأحيان أقف منها موقف المتجنى ثم موقف المهاجم وتعللت أول الأمر بعلة أننى أريد اختبار وفائها وصبرها على أذاى ، ثم صار هذا عادة حيالها . أصبحت بالنسبة إليها نارا دخانها أكثر من دفئها ، ولكنها لم تتململ ، وكان ينبغى بعد ذلك أن أكون كريما فأسترد شيئا من حسن المعاشرة ولكن شيطان الشك كان بارعا جدا ، فسول لى أن احتمالها الأذى داخل فى نطاق المؤامرة ، وأنه إن جاز على هذا كنت مخدوعا مثل أبى !! إذن فما معنى الحب ؟!

عرفه لى فقد عييت بأمره !!

ثم كان بيننا موقف كئيب :

كانت فرحة بى أول الأمر لأننى كنت متطلق الوجه هاش الملامح ،

ولعل نسمات الربيع فى ذلك الأصيل كانت العامل الأول فى سرورى ، كانت تسير إلى جوارى كأنها زهرة أو جنة ، وتدفقت بحديث حلو شهى تعاونت ملامحها جميعا على إرساله كما تتعاون أدوات الفرق الموسيقية على إرسال لحن جميل ... بدأت تتحدث عن الربيع :

ــ إننى أحب هذا الفصل .. لكننى أحس فيه بمعنى غامض كثيرا ما يقلق سكونى ... كأنه الحنان ... أو الحنين ... أو كأنه شوق يخلطه أمل ... أو لفح خفيف ينغمس فيه القلب ... (ضحكت وأردفت) أو كأنه خليط من كل أولئك .. (ثم هزت رأسها كأنما تنفى كل مافات) وقالت : دعك من هذا ... وجدتها على رأى «أرشميدس» (وأمسكت بذراعى وبطأت من خطاها واشتد بريق عينيها ورقص على شفتيها خيال ابتسامة) أتدرى ماهو ؟! هو المعنى الذى يحمل هذه الطيرعلى أن تغرد .

فهززت رأسى موافقا وأنا مبتسم ثم قلت فى شىء من السخرية : روايات .. !! أبطال خياليون !! مخلوقات يحركونها بالأيدى !! . وسكت لأننى رأيت معنى خيبة الأمل على وجهها فأشفقت عليها ثم أردت أن أصلح مما أفسدت فقلت بعد قليل : ــ إنه مستعد أن يقدم إليك مائة ألف ... وهومرتاح ... وأظنك توافقين . فغمر وجهها تعجب المتسائل :

ــ مائة ألف من ماذا ؟!

ــ خمنى .

ـ قرش ؟...

فقلت : لا   فقالت جنية ؟ فلما قلت : لا . أظهرت عجزها ، فميزت لها العدد قائلا : كتب وروايات . فاختلطت ضحكتها بتغريد بلبل على شجرة ، ثم أشرفت على مجرى الحديث ببراعة واهتمام حين تساءلت مرة أخرى : بقى علينا أن نعرف من ذا الذى سيحمل نفسه هذا العناء ؟ فقلت خطيبك ... سيجعلها مهرا لك . فرأيت فى عينيها نورا لم أره من قبل . كأن أشعة من الضياء الباسم تنبعث متواصلة من عمق عينيها ومن تحت ظلال الأهداب ...نور وحبور فى طمأنينة وسلام . ولكنه لم ينفذ إلى قلبى ؟. وتمليت وجهها طويلا وأنا أراقب تحرك شفتيها ثم باغتتها قبل أن تتكلم : ولكن ... (وأطرقت نحو الأرض فزاد اهتمامها) ولكن ... أتظنين أنه يستطيع اقتناء مثل هذا العدد الضخم من الكتب قبل أن يصل إلى سن الستين ؟! فابتسمت ولم تتكلم ، والتهب خداها بحمرة شديدة ، وقرأت فى عينيها أنها لم تفهم تماما معنى ما أقول ، فأمهلتها حتى تسترد قواها فتستطيع تحمل اللكمة ثم أردفت : وتعرفين طبعا أننى غير مولع باقتناء الكتب ...

فاهتز أعلاها وأسفلها ، والتقى ناظرانا ففهمت أننى أقصد رجلا غيرى ، ورأيت الضياء الباسم يندى بشىء من الدمع جاهدت فى أن تستره ولكنها لم تفلح ؟!

« وأدركت الآن ياصديقى أننى كنت قاسيا عليها ولكن بعد فوات الأوان !! »

« إننى لا أزال أذكر هذا اليوم وأستطيع أن أميز رائحة نسيمه فى خلال عصور طويلة .. لقد كانت ظروفه كلها متألبة عليها متعاونة ضدها حتى لكأن شعاع الغروب الذى توسد خديها فى ذلك المساء لونهما فى عين بلون الدم المزعج ! »

وتكلمت فأكدت لى أنها قبل كل شىء واثقة من خذلان قضيتها أمام قلبى على الرغم من دفاعها عنها . ولكن الدفاع من مقومات الاستشهاد ، وسألتنى :

ـ أتذكر أننى فى يوم من الأيام تحدثت معك فى شأن الزواج وقد تعارفنا منذ عام كامل ؟

ـ لا ...

ـ ثم ألا تذكر أننى شرحت لك غايتى فى الحب ونظرتى إليه ؟

ـ بلى حدث هذا .

فأسبلت أهدابها ثم نظرت ، ثم تهدج صوتها ثم اختنق بالدمع . كانت تقول :

ـ توقع كل شىء ياحسنى إلا شيئا واحدا ... إلا أن أقول لك : إننى كنت مخدوعة فيك .. لم يحدث ذلك قط وأقسم أننى كنت مختارة فى كل ما فعلت ... كنت أعنى كل ما أقول ، وكنت أقصد كل ما أعمل . وقد وقع بينى وبينك أشياء لعلك تنظر إليها الآن على أنها أخطاء .. تأخذنى بها وتصغرنى فى عينك .. آه .. ولكننى مصرة عليها ومتعصبة لها ، لأننى لم أبذلها لك ارتجالا كما تغتنم لذة سهرة

عرضت لك فى الطريق . كلا .. إننى أربأ بأخطائى أن تكون من هذا النوع ، على أنه لم يحدث بينى وبينك مايؤاخذناعليه الناس مؤاخذة عنيفة ..ولست أقول هذا قاصدة أن أخفف عن قلبى عناء ولاوصبا وإنما أقصدك أنت به .. فإنى لازلت أخشى أن أعقب لك ندما فى بعض خلواتك .

(ثم خفت صوتها ثم كفت عن الحديث وقالت بعد برهة) :

ـ حسنى ... أتفهمنى ؟ أقسم لك أننى صادقة فى كل ما أقول!!

كانت الشمس فى هذه الساعة مدرجة فى أكفان من الشفق على الأفق الغربى ، وكنت ناظرا إلى موقع قدمى على الطريق وهى تتحدث فلم أرفع عينى إليها ، لكننى كنت متصورا ملامحها من نبرات صوتها وخفقات أنفاسها . كما نسير فى اتجاهات مختلفة تراعى فيها أن تكون الطرق التى نختارها هادئة نوعا ، ولم يكن فى قلبى لها حنان كثير بل ربما كان مائلا فى ذلك اليوم شيئا ما إلى جانب القسوة . ولكنها ما وصلت من حديثها إلى هذا الحد حتى رفعت إليها طرفى فرأيتها مثالا ينطق بالذلة وخيبة الأمل .. وبالحب كذلك مع الأسف الشديد !! كانت ضراعة وهوى واسترحاما ..كانت ـ كما خيل إلى ـ تتمنى أن تجثو تحت قدمى لولا أننا فى طريق عام .

وخفق قلبى بالحنان فى هذه اللحظة فقط وتمنيت أن أقبلها ، وكانت ألوان السماء ووقت المساء ونسمات الربيع كأنها يد رفيقة لطيفة تربت خدى بالنيابة عنها لأحنو عليها ، ولقد هممت ، لولا أننى تلفت

فإذا بنا ننقل أقدامنا على طريق له فى النفس ذكريات مرة ، فعلى هذا الطريق منذ سنوات رأيت عم غانم يتدحرج إلى جوار امرأة هيفاء وقد سترت وجهى يومئذ بكتابى ، وهأنذا اليوم أضع كفى على عينى ثم وهأنا أتنهد .

وتظن زينب أننى تنهدت رفقا بها وعطفا عليها . ولكنها ذكريات؟! أعترف أننى كنت قاسيا ولكن ماذا أعمل ؟! . لقد كانت الظروف كلها متألبة عليها !

***

أصبحت أحبها فى وضع واحد وفى موقف واحد ...

أصبحت أحبها امرأة منكسرة ذليلة تنظر من حضيض جثوها إلى رجولتى فى العلياء . وهنا كنت أجود عليها بقبلة وفى القلب شىء من الحنان !!

لاتؤاخذنى . فقد انطلقت الشياطين من داخلى بعد أن انفرجت عنها أغطية القماقم شيئا ما ، شياطين ربتها أم ربيع وتعهدتها بالغذاء والسقيا كما يفعل رعاة الخنازير. وليس الذنب ذنبى فهكذا نشأت ، ولعل زينب لاذنب لها كذلك ولكن حظها هو الذى يسر لها أن تعرض فى طريق رجل مثلى .

***

أخذت أنفاس الربيع تميل نحو الدفء قليلا قليلا . وبدأت روائح الصيف تصافح الأنوف فى كثير من أوقات الظهيرة . وأخذت أوراق

اللبلاب تتكاثف على عريشها تحت نافذتى حتى كادت تحجب أرض الشرفة ، لأن يدى تركتها تنمو بحريتها فلم تعبث بها كما كانت تفعل من قبل ...

وأظل المساء فلا نجوى ولاطرقات !! أصبحت أتعلل بمختلف العلل وبكثرة العمل ، وفى الحق أننى كنت متضايقا من نفسى ... كانت الومضة الإلهية التى لمعت فى قلبى لأقل من عامين ، قد بدأت تخبو ، حتى وجدتنى أحس شيئا من انقباضى القديم ووحشتى الأولى فأصبحت شبه يائس ، وأمسكت بالناى فكنت عازفا ذاهلا على أداة مذهولة ، وجعلت أرسل شيئا من الأنغام كان يمسح عن نفسى أنا شيئا من أوصابها ، ولم تطل مدة العزف حتى أحسست كأن ألحان ناى آخر بدأت تنصب فى أذنى فتوقفت فإذا بالمشهد القديم يعود وإذا براشد يعبر السطح فى طريقه إلى غرفتى ... آه أيها الصديق ... هاأنتذا قد عدت ... أخيرا ؟!

وقطعت أصوات القبل عبارات الترحيب مرة بعد مرة . وغابت عنى نصف آلامى التى كنت أحسها منذ حين ، وأسعدنى أننى خلته سعيدا ، كان مشرق الوجه بادى النضرة يثب فى حديثه وثبات سريعة كأنه يريد أن يتكلم بما أدخره كله فى نفس واحد . واستمرهكذا ساعة بدأ ينظم بعدها حديثه ويرتب أفكاره ، بعد أن كان يتكلم عن الشوق ثم يعرج على العمل وينتقل فجأة إلى من عرفهن أو أحبهن ثم ينكص فيصف بعض مضايقات عمه له ، وخفت عنه هذه الحمى بعد فترة

فشرع يقول : ثم انتهى بى المطاف إلى أن صرت مندوبا لإحدى شركات التأمين فى الإسكندرية ، وأنت بطبيعة الحال تعلم مهمة المندوبين فى هذه الشركات ، ومامهمتهم إلا إيقاع أكبر عدد ممكن فى حبائلهم الحريرية فيؤمنوا على حياتهم . لم يكن لى مرتب ثابت ولكنى كنت موظفا « بالعمولة » أعنى أنه كانت لى نسبة مالية تصرف لى عقب إجراء كل عملية من العمليات ، وقد قبلت هذه الشروط لا لثقتى أنها مصدر خير وربح كثير بل لأنها مصدر عمل فحسب فما كنت أحب أن أرى متعطلا . واشتريت حقيبة فخمة من تلك التى يحملهارجال الأعمال فى الغالب ، وعمدت إلى أن أحشوها بالأوراق جيدا بحيث تكون بادية الانتفاخ ليظن كل من يرانى أننى مثقل بتكاليف مهمتى . ثم وضعت فى فمى سيجارا معطرا ضخما ، وفى يمينى خاتما ذهبيا كبيرالفص ووقفت أمام المرآة برهة فراقبت منظرى والحقيبة فى يمينى ثم ابتسمت لنفسى وخرجت .

لم تكن بى حاجة إلى المال ياصديقى لكننى خرجت فى هذا الصباح وقلبى مشتاق إلى أن يرى وجه الدراهم ... وفى ذلك الصباح وحده أحسست قلق الذين يغدون فى طلب الرزق مع كل شمس ... فعذرتهم!!

كنت أقرأ الوجوه وأستخبر المظاهر لكننى كثيرا ماكنت أقع فريسة للمظهر الكاذب . كنت أدخل عيادة الطبيب فيظننى مريضا ، وأدخل مكاتب نظار المدارس فيحسبوننى من المفتشين . وهكذا كان كل يظن

بى ما فيه مصلحة لنفسه حتى إذا ماكشفت له عن حقيقتى بدأ فى التراجع بطريقته الخاصة ولست أنسى ابتسامة أحد النظار التى كانت تنطق بمافى نفسه وكأنه قال لى فى ذلك اليوم : أزعجتنا يابنى. أهذا كل ما فى الموضوع ؟! ولاأنسى كذلك قول موظف صغير كان مكبا على مكتبه فلم يرفع إلى طرفا : ليس فى الحياة شىء يستحق أن يؤمن عليه يا سيدى .. حتى الحياة نفسها ...

وانقضى أكثر من شهرين وأنا فى هذا العمل لم يفتح الله على بصفقة واحدة . كنت أحمل حقيبتى فى كل صباح وأخرج لأننى تعودت أن أفعل ذلك ثم آخذ فى ارتياد ما يعن لى أن أرتاده من أماكن ثم أعود آخر اليوم خالى الوفاض ...

وسكت راشد عن الحديث فجأة وبرقت عيناه بمعان غير التى كان يتناولها فعرفت أنه سيخوض فى حديث غيره . وما انقضت برهة حتى سمعته يقول : لقد انفتح باب الشقة السفلى هذه وأنا واقف عند مدخل السطح قبل دخولى ، وأطل من الباب وجه جميل . وابتسم كأنه يسألنى، أتعرف صاحبة هذا الوجه ؟ فأجبت بهدوئى المألوف : بطبيعة الحال ... وهى ابنة صاحبة المنزل .. فأجاب مسرعا : يسعدنى أيها الصديق أنك فى منزل من منازل القمر . قلت : ولكننى فى الظلام !! ولم أمكنه بعد ذلك من التعليق على موضوعى وحملته على أن يعود إلى ما كنا فيه ، فأخذ يقص على قصة مديرة المشغل التى عقد معها أول صفقاته والتى كان بينه وبينها علاقة تقرب أن تكون غراما

فاستطاع مع الأيام بمواهبه وبسلطانه على هذه المرأة أن يجعل كل عاملة من فتيات المشغل تؤمن على حياتها راضية مختارة ، قلت له : إن قلبك يا راشد خير من أدواتك التى تستعملها فى الحياة . فضحك ، فأردفت ولست أدرى أكنت ناقما عليه أم حاسدا له : إنك تكسب من حركات قلبك كأنه أحد جياد السباق !! وضحكنا ما ، وامتد بنا السمر فترة أخرى من الليل ، وعزفت له على نايه التذكارى نطعة فيها فن قليل وفيها سذاجة كثيرة ولكنه بشرنى بعدها وقبل أن يفارقنى بمستقبل باهر ــ كما قال .

هنيئا للذين يجدون الحب ويحسونه إزاء كل من يلقونهم .. هنيئا لهم ألف مرة حتى ولو ظللتهم الأوهام ... إنهم يرون الدنيا أكبر من حقيقتها دائما كأنهم ينظرون إليها على ضوء قلوبهم العامرة من خلال منظار كبير. أما أنا ... فقد أحببته فى الخيال وكرهته فى الواقع فاعتبرت التدلل « برودا » ، واعتبرت التدلة دعارة... فلم أدر ما الحب !! .

ثم طوتنى الأيام فى خضمها الزاخر ، ومر موكب الزمان غير حافل بترددى ولا وساوسى ولاأوهامى ، وتراجعت نحو الوراء خطوات كنت خطوتها إلى الأمام بعد أن اقترفت هذه التجربة الشخصية ، وأصبحت العلاقة بينى وبين زينب أشبه بعضو مشلول ، إن حرصنا عليه رجونا مع الأيام عودة الحياة إليه وإلا قطعنا رجاءنا فيه .

وظللنا هكذا حتى انتهى العام فشغلنا بالامتحانات وشغلنا

بالنتائج ولم تتردد زينب فى أن تصعد إلى فى وضح النهار لتسأل عن نجاحى الذى كانت واثقة من أنه واقع ، حتى إذا ماكان هنأتنى بقبلة .

وقد تعجب أيها الصديق إذا قلت لك : إن ذهولا وحيرة كانت تبدو دائما على وجهها وفى ملامحها ، وإننى كنت أهم فى بعض الأحيان بأن أسألها : ما بك ؟ أو ماذا يكنه قلبك لى ؟ لكننى أدير السؤال فى رأسى قبل أن أنطق به ثم أمسك لأننى أحس أنه تافه .

ماذا بها ، هل أريد دليلا عل حبها إياى بعد الذى كان ؟ لقد كانت طريقتها فى التعبير عن غرامها روائية شعرية خيالية ... كانت متطرفة فى الوفاء كما قلت لك ، ولو أنها صادفت ذلك المتطرف والتقى الشبهان لكانت المعجزة ، ولأقلق هذان الحبيبان بالنجوى والقبل آذان الساهرين وأحلام النائمين ردحا طويلا من الزمن . ولكن حدثنى متى التقى الشبهان !!

وقررت أن أسافر إلى بلدى ، وجعلت أفكر بعد هذا القرار أأخبرها بيوم السفر أم أجعله مفاجأة لها ... لتكن مفاجأة سارة ولكننى أريد أن أفعل هذا .

إننى لا أزال متعطشا حتى هذه الساعة إلى دليل جديد تثبت لى به أنها تحبنى ، فلتكن هذه المباغتة وسيلة إلى ما أبتغيه .

وشهدت انهزام آخر سدفة من سدف الظلام أمام أشعة الفجر وأنا فى القطار إلى جوار النافذة ، ومسحت نسمات البكور على وجهى الخامل بأناملها الندية فأفقت وجعلت أفكر فيما أنا فاعل . وخيل



إن ذهولا وحيرة كانت تبدو دائما على وجهها وفى ملامحها

إلى أنها أحست حركتى وأدركت طويتى وأنها لحقت بى فكأنها واقفة على الرصيف ، ممسكة بحافة النافذة ناظرة إلى فى مجلسى نظرات تفيض عتابا وحيرة ولهفة ، ثم تسألنى وشفتاها الذاويتان ترتجفان : لم فعلت هذا ؟ ،، ولم هذه القسوة ؟! فاختلج قلبى اختلاجة خفيفة استدللت بها على أنه حى ، ثم تشاغلت بأشياء أخر ، ثم شغلت ، ثم شغلت بأم ربيع وبأبى ، وبكل ما حولى، عما كنت منغمسا فيه .

وهأنذا قد أدركت معنى الوحشة التى رانت على البيت فى أعقاب سفرى ، بعد أن وصفتها لى فى رسالة تسلمتها فى اليوم الخامس من أيام إقامتى ، إننى تأثرت بها وكادت عيناى تفيضان بالدموع وأنا أقرأ بعض العبارات ... كأن البعد يخفف من حدة أحكامنا على من نتجنى عليهم ... نعم .. فى البعد شىء من معنى الموت ، والموت يجعلنا نغفر كثيرا من الذنوب حتى لأعدائنا :

« لم نتفق على أن نتراسل كما فعلنا من قبل ، ولكن لا بأس من أن تقتحم عليك رسالتى هذه سكون أحلامك ، وذهول نسيانك .

جعلت أنصت إلى وقع أقدامك طول النهار وأرقب انفتاح نافذتك طول اليوم ، حتى إذا جن المساء فلم يلمع من حجرتك ضوء ، صعدت وطرقت الباب ، ولكن ... لا مجيب !! كان كل شىء يهمس بأنك غائب ، رأيت كأن على نافذتك التى أقفلتها منذ أربع وعشرين ساعة تراب أجيال ، وكأن القاهرة ارتحل عنها ساكنوها ... لا ، لا ، لن أنسى أن أقول : إن شجرة اللبلاب بدت ذابلة وكأنها عطشى ، كأنما

كنت تسقيها أنت من نافذتك ، وكأنما هى تشرب بسوابق أغصانها لا بجذورها ... نسيت ، لقد كنت تسقى من نافذتك مخلوقة أخرى غير هذه الشجرة ، أتذكرها ؟ أيها القاسى .. لماذا أنت محبوب ؟؟ ..

لست أطلب منك صفحا إن عددتنى مخطئة ، لأننى متعصبة لأخطائى ، فهل تفهم ؟! . لم يخدع أحدنا صاحبه عن شىء ، أم هل كنت لاتعنى الذى فعلته ؟! »

واستخف العطف قلبى فرددت عليها بعد يومين على الرغم من أننى فى جوار مصدر القسوة ، فى جوار التى ترعى الشياطين فى داخلى والتى نغصت على الحياة . وأذكر أننى كنت فاترا فى كل ما كتبته لها ، لم أعلق على جزعها بشىء ، ولم أجب بها عن سؤال واحد، بل ظللت أدور مراوغا حتى لاتعلم ماالذى أعنيه . وكنت أتوقف عن الكتابة بين فترة وأخرى لكى أسائل نفسى عن تأثير بعض عباراتها فى « إننى متعصبة لأخطائى » ، « هل كنت لا تعنى الذى فعلته ؟» فأحس أنها أشاعت فى القلب شيئا من الظلام !! .

وينقضى شهران أتسلم فى خلالها رسالتين منها فى أسبوع واحد، ثم ثالثة بعد أسبوع آخر ، ثم رابعة بعد أسبوعين ، كل هذا وأنا لا أرد. ثم تنقطع رسائلها بقية المدة فأجدنى أقول فى نفسى : إننى صادق الفراسة ، ها هى ذى قد يئست فلم تتحمل تجربتى ولم تصبر عليها ... كلهن ممثلات ، ومرة أقول : لو كنت أنا مكانها ما احتملت أكثر من ذلك ، وأقول طورا : ربما يكون قد صادفها حبيب جديد ،

وأعود فأقول طورا آخر : لماذا هذا التجنى ؟ أليس من الجائز أن تكون قد وقعت فريسة لمكروه ؟!

لقد أفلحت خطتها تلك فى تحريك سواكن النفس واستدعاء شواردها إن كانت خطة مرسومة ، لأننى أحسست معنى من القلق عليها لم أحسه من قبل ، وخيل إلى أننى أولى للناس ظهرى لأن امرأة تهتف بى قائلة : إننى أحبك ، فلا أجيبها إلا بانغاض رأسى وهز كتفى . ثم أستسلم لذهول طويل وهم ثقيل أثقل ما فيه أننى لا أعرف له سببا ، فلا أستفيق إلا على رسالة تصل إلى من راشد .

« ليست هذه الرسالة الأولى إليك فى هذا الشأن ، وإنما هى الرسالة الثانية . بعثت إليك بخطاب قبل هذا بعنوان مسكنك فى القاهرة فلما لم أتلق منك ما يفيد أنك قرأته ، رجحت أنك سافرت ، وأنه لم يحول إليك ... »

وأمسكت عن القراءة لحظة لأتصور زينب وهى تفض غلاف رسالة صديقى ، لأن لهفتها إلى رسائلى لم تمهلها حتى تتأكد من خاتم البريد أوهيئة الخط ، وحتى لو أمهلتها اللهفة فذلك كله لا يهم وسترجح أنها لها وأنها من عندى ، فإن أضعف الاحتمالات تقويه قلوب المحبين . ثم زمجرت وتوقدت غيظا وحقدا ، وتساءلت ، لماذا لم تحولها إلى خصوصا بعد أن اطلعت عل أسرارى :

« إننى يا صديقى لأبخل بوقتك وأضن بموفور شبابك ، فلا أقرك على أن تقضى فترة الصيف الطويلة هذه متسكعا فى الحقول ضالا

فى الأراضى البور التى حدثتنى عنها . أرجوك أن ترحل إلى القاهرة من فورك لتقابل الأستاذ « م » فى فرع شركتنا عندكم ، لأننى تحدثت معه فى شأنك وهنا تتفق معه على عمل إضافى يسير يصلح الأجر الذى تتقاضاه منه أن يكون أجرا لمعلم الموسيقا ، حتى تستطيع العزف عل الناى جيدا بعد فترة قصيرة .. وأقبلك » .

قلت فى نفسى : الأصدقاء .. والحبيبات !! .. ما أعظم الفرق بين وفائهم وغدرهن !! إنه يعلم بحاجتى إلى المال : أقصد أنه يعرف أننى أعيش فى غير بحبوحة فيسر المال لى بطريقة موسيقية كذلك ، أما زينب فقد قرأت خطابه ثم أخفته عنى ، ما أتفهها ؟ ! قلت لأبى فى مساء ذلك اليوم : لن أسافر إلى القاهرة مستهلكا يا والدى ، ولكننى سأكون منتجا ، ثم قصصت عليه القصص فأشرقت أساريره ببسمة كادت تمحوعتمة الشيخوخة ، وهز رأسه موافقا وكأنه يقول ، إن قلبى مرتاح إلى تصرفاتك .. إنك موفق بإذن الله !! .

وجعلت وأنا فى القطار أرسم خططا شتى : كان منها مافحواه أننى أقابلها بلطمة ، ثم آخذ فى عتابها ، وكان منها ما فحواه أننى ألقاها بقبلة ، ثم آخذ فى عتابها ، وكان منها أن أكرر المنظر القديم فأتسلل على السلم وأدخل غرفتى ، ثم أفتح نافذتى وأشرف عليها فجأة من خلال الأغصان ، ثم أرقب سقطة الكتاب من يمينها وأنا أبسم ، وهى مستندة إلى إطار الشرفة . وغير هذا وذاك من خطط كثيرة رسمتها ولست أذكر شيئا منها .

كان الوقت أصيلا وأنا صاعد إلى قلعة الكبش ، أعد سلاليمها في طريقي إلى المنزل ، وكنت متجها ببصري نحو الجنوب الغربي ، بحيث تأخذ عيناى منظرالتلال التى لونتها شمس الأصيل ، ومنظر الشرفة التى عسى أن أرى فيها أطراف ثوبها الأبيض وقد أطلت من بين حديد الإطار ؟ لكننى رأيت التلال ورأيت الشرفة وأصصها وليلابتها ، ولم أرها هى بين هذه المعالم !! وأحسست فى هذه اللحظة شوقا لم أحسه فى أى وقت مضى ، وانهارت كل الخطط التى رسمتها وأنا فى القطار ، فلم يبق منها إلا خطة واحدة هى أن تسر شفتاى إلى شفتيها شيئا من أشواقى إلى مدى ساعتين ، ثم أبدأ فى الحديث بعد ذلك ..

واجتزت عتبة الباب ساكنا هادئا ، كأننى عامد إلى ألا يحس أحد بقدومى ، على أن المرئيات كانت تتثاءب ، كانت كسلى من قيظ القاهرة ومن أنفاس المقطم ، وكأنما كان بعضها يتمطى ..

وأدرت مفتاحا فى القفل ، ثم أدرت آخر فى الباب نفسه ودلفت إلى حجرتى ، فخيل إلى أننى غبت عنها جيلا ، وأن قطع الأثاث المغبر ترسل إلى بأشعة كاسفة كابتسامة المحتضر وتقول لى : لم غبت كثيرا ؟؟

وفتحت النافذة فارتمى شعاع الشمس تحت أقدامى على الأرض بعد انفراج المصاريع ، ثم واجهتنى شجرة اللبلاب. كانت ساكنة الورق مستقرة الأغصان كأنها شجرة من شمع ، لأنه لم يكن هناك أنفاس

نسيم . ولاحظت أن بين أغصانها أغصانا جافة جعلتنى أشك فى أن هذه الشجرة أهملت فترة ما ، حتى دب إليها الجفاف ، ثم تداركتها يد العناية . ورأيت أرض الشقة وقد تناثر فيها ورق كثير ... ورق جاف ، يدل على أن بابها لم يفتح منذ حين . وأن المكنسة لم تعمل فيها . وكذلك الأصص كانت فقيرة من الأزهار ..

قلت : ما هذا المنظر الشاحب ؟! فترددت فى النفس أصداء من الوحشة . لكننى عدت فقلت : لعلها فى الخارج ، وقد كانت فى الخارج حقا !! واصطبرت حتى سجا الليل ، وسجا بوجه جديد أحسست فيه معانى لم أدركها من فورى . وربطت خيطا فى عريشة اللبلاب وجعلت أرقبه لكنه لم يتحرك ، ففتشت عن قطعة الخشب وطرقت بها أرض الحجرة فى فترات لم يكن بينها زمن طويل ، وكاد قلبى يثب من بين أضلاعى حين سمعت طرقة خفيفة على بابى ، ثم كاد قلبى يهبط إلى حيث أحشائى ، حين رأيت الطارقة فى ثياب سوداء ...

كانت خادمتها ... كانت ملامحها مشحونة بألم ناطق وأخبار حزينة ، وصرخت فى وجهها قائلا : ماذا ؟ فأجابت بصوت خافت : ماتت سيدتى ، فكدت أضرب صدرها بكلتا يدى وأنا أسألها أى سيدتيها هذه ؟ ثم جمد كل منا فى مكانه ، والتقت أعيننا الزائغة بعد أن قالت وهى تبتلع ريقا : سيدتى الصغرى ـ سيدتى ... زينب !!

***

لاتسلنى عما عرانى فى هذه اللحظة لأن الصدمة كانت قد

أفقدتنى وعيى !! لكننى لن أقول لك إن دموعى سالت مدرارا ، ولا أننى سقطت مغشيا على ، لن أقول هذا لأن هذا لم يحدث حين فجأنى نعيها ، ولكن الذى حدث هو أننى ضربت كفا بكف ، وتلفت حولى غير مستبعد أن تقوم القيامة ، ثم وجدتنى بلا تفكير ولاتدبير أهبط السلم ، وأطرق الباب وأطلب من خادمة زينب أن أقابل أمها ، وقد كان !! .

قابلتنى فى البهو طويلة العود جرداؤه كأنها نواة لفظها الزمان . وكانت متشحة بالسواد ، ذات وجه أبيض مستطيل ساهم ، طويل أكثرمن المألوف كأنه ضغط بين شيئين . كانت كأنها تتوقع لقائى ، بل كأنها تتأهب له . وتمتمت بكلمات تحمل معنى العزاء لم أبينها ولم تسمعها ، ثم سارت أمامى وتبعتها إلى حجرة لم تكن حجرة الاستقبال.

ما هذا الذى عملته معى تلك السيدة ؟! كانت تصرفاتها غير واضحة تماما ، تركتنى أفهم منها ما أشاء . ولم أجترىء بطبيعة الحال أن أستوضحها ما تعنيه . لم تسر بى إلى حجرة الأضياف بل سارت بى إلى حجرة زينب ... إلى التى فيها الشرفة ، وفيها الذكريات ، التى منها صعد الحب والشعر ، والحنان ... ثم الثكل والفجيعة .

وسارعت إلى باب الشرفة ففتحته بمجرد أن وطئت أقدامنا أرض الغرفة ، وارتمى ضوء المصباح على بلاط الشرفة ، وهبت نسمة فاترة الأنفاس فخشخشت بأوراق اللبلاب ، وخيل إلى أن زينب لاتزال فى الشقة ، وأنها تصفف شعرها وتبدل ثوبها فى غرفة أخرى قبل أن تدخل علينا . ودارت برأسى الخواطر كأننى أشرب الخمر للمرة الأولى ،

وجعلت عينى تستقرىء أثاث غرفتها الحزينة ، فرأيت غير الكنبة الصغيرة التى جلسنا عليها يسار الباب ، سريرا إلى اليمين ، فى نفس المكان الذى جعلت فيه سريرى من الحجرة العليا ، وكان مرتب الفراش كأنه بانتظار صاحبته !! ورأيت إلى اليسار على مقربة من الكنبة مكتبها الصغير الجميل المنظم ، ولاتزال الكتب منضودة عليه بنظام هو من فعل يديها ولاشك ... ثم شغلنى حديث أمها عن أن أرى بقية الأشياء ، لم تتمهل حتى أسألها ... كانت شحنة الأحزان مثقلة قلبها ، فهى تريد أن تتخفف منها على أن نظرتها إلىّ كانت غريبة مريبة... خيل إلىّ أنها تتهمنى ، ولكن بماذا ؟ لست أدرى ... لم تبك وهى تقص على أمر بنتها العروس ـ كما وصفتها ـ ولعل عدم البكاء كان من أنها أسرفت فى الدموع ، أو من ذهول عميق صبغ ملامحها حتى كأنها تتحدث بأمر لايعنيها :

ـ « كان ذلك من أسبوعين يابنى ، لقد وسدناها الثرى منذ خمسة عشر يوما تماما ... كانت جميلة حتى اللحظة الأخيرة ... لكأنما كان على شفتيها ابتسامة ساعة دخلت فى الصباح لأوقظها وأنا لاأعلم أنها فى نومة أبدية . لم تكن تشكو إلا قلة النوم والإرهاق الأعصاب ، فوصف لها الطبيب مهدئا ومنوما ، وتناولت الدواء لمد أسبوع ، لكنها لم تحس تقدما مذكورا ... ثم كانت آخر لياليها !! » .

لم ترفع الأم إلىّ طرفا حين تحدثت بهذا الذى قالته ، لكنها نظرت ثم أطرقت .. ثم تنهدت ، ثم جعلت تقلب كفيها وتنظر فيهما ،

وطال الصمت حتى كدت أختنق به ، وهممت أن أتكلم بأى شىء ، لكنهاعاجلتنى بما اضطربت له وأوصالى :

ـ بنى .. هل كنتما حبيبين ؟! .. إننى خاف أن يكون الحب هو الذى قتلها !!

وانتصبت واقفة وخرجت مستأذنة فى غياب دقيقتين وأقفلت وراءها الباب . وكم حمدت لها أنها خلت بينى وبين نفسى لأننى خليت السبيل لدمعى المحبوس !!! ثم جعلت أفحص الغرفة من جديد وكأن روحها كانت تظللنى ، فرأيت على مشجبها المنصوب على مقربة من المكتب ، ثوبها الذى كانت ترتديه فى ليلتنا الخالدة ، ليلة عرفت لى الحب بأنه رق ودى وعبودية اختيارية ، ثم كفت عن كلامها لتسقينى بعينيها خمرا !!

قمت وأنا أتلفت كما يغافل اللص أصحاب المنازل وخطوت بحذر إلى ثوبها الأبيض فقبلت أذياله ، وخيل إلى أن رائحة جسدها ملأت خياشيمى ، ثم خيل إلى أن المرئيات كلها تآمرت على فى هذه الليلة بأشد مما تآمرت به عليها من قبل ، ليلة توسد شعاع الغروب خدها الحزين ، ونحن على الطريق الذى صب فى نفسى ذكريات أليمة !!..لقد ثأرت لها الأشياء !! واعترانى دوارفسرت أترنح ، واتخذت مجلسى حيث كنت ، وأنا أشرق بدموعى ، ثم ما لبث الباب أن انفتح ودخلت أمها الثكلى ، وانقضت برهة استأنفت بعدها حديثها قائلة : « وبعد موتها ببضع وعشرين ساعة اكتشفت شيئا عجيبا .. وجدت أنبوبة

الأقراص المنومة فارغة من كل ما فيها ، على حين أننا اشتريناها ليلة فقدناها ، أعنى فى مساء لم تشرق عليها بعده شمس ... آه إننى أتساءل ، هل ابتلعت كل الأقراص دون أن تعى ما تفعل ، وهى تحت سلطان الآلام ؟! أم ماذا ! .. »

فغضضت من طرفى لأفر من عينيها ... كانت تسألنى بهما وبفصاحة يخالطها أسى كثير : أهى منتحرة ؟ .. هل أشقيتها أنت أيها الشاب ؟ .

ـ ٩ ـ

وبدأت النفس تحس مصابها شيئا فشيئا حتى استحالت الدنيا بعدها إلى مقبرة عظيمة .

وبلغت أحزانى على فقدها الذروة ليلة طرقت على خادمتها الباب وقدمت إلى لفافة بعثت بها سيدتها الكبيرة ... بهذا الوصف نعتت الخادم سيدتها ، على أنه لم يكن هناك داع له ، لأن سيدتها الصغرى لم تعد تبعث بشىء ... إلا بالأحزان ... لكنها العادة !!

وجلست إلى المنضدة التى طالما فصلت بين جسدينا وفضضت اللفافة ، فإذا هى تحتوى على رسالة صديقى راشد ، وكانت مغلقة لم تعبث بها يد أحد ، ثم رسائلى إليها كانت مرتبة ترتيبا زمنيا حسب تاريخ كل رسالة ، ووضعت فى وسط كتاب لم يكن سوى القصة التى انتقينا رسالتينا الأوليين من بين كلماتها ، وكأنما قد حسب هذا الكتاب من ضمن الرسائل !! إن الغموض الذى يشوب هذه التصرفات ليحير ذهنى يا صديقى كما حير ذهنك أنت ، ولعله كان مبعث هم لقلبى لا ينقضى ، لأننى لا أستطيع أن أجزم بشىء حيال ماقد حدث أخيرا ، هل انتحرت ؟ أم هل قد تناولت أقراص المنوم عن رغبة حقيقية فى النوم ؟!

وعن رأى من بعثت إلى رسائلى ؟ هل أوصت زينب قبل موتها بذلك ، أم أن أمها هى التى تصرفت هذا التصرف ؟ تلك أسئلة لم أستطع أن أستوضح أحدا جوابها ، وقد بقى الزمان ممسكا عن توضيحها لى حتى هذه الساعة .

وقمت إلى حقيبتى وأخرجت منها رسائلها الوردية ، ثم جعلت أرتبها ترتيبا زمنيا كذلك ... وأخذت أقرأ رسالتها وأقرأ ردى عليها أو أفعل العكس ... حتى عشت فترة حبنا مرة أخرى لكننى عشتها معكوسة . وأخيرا وصلت فى قراءتى إلى رسائلها التى لم أرد عليها فى أخريات عمرها فأحسست أننى ممسك بأداة الجريمة ... ممسك بالخنجر الذى طعنتها به وجعلت أتفحص الخطابات وأستوحى الكلمات وأحملها فوق الذى تطيق حتى رأيت هذه العبارة : « إننى خائفة عليك ... طمئنى على حالك وأعدك بأننى أكف عن الكتابة إليك ، لا تماطل فأعمارنا أقصر من أن تتحمل مطالا !! » .

وتراخت يدى بما تحمله وجاشت العينان بالدموع ... أجل بكيت ، وأذكر أننى ضحكت يوما ما وأنا أقرؤها !! .

وهكذا يا صديقى أحسست فجأة أن فى باطنى كنزا ... أرجوك أن تقبل هذا التعبير لأنه الحب ... أحسست أن فى باطنى كنزا كان من المستطاع جدا أن أسعد به لو أننى عرفت حقيقته ، وأنفقت منه فيما مضى . بيد أنى اكتشفته فجأة وبعد الأوان ، فانقلب إلى كنز من الهموم وتنور من الأحزان .

وبدأت الذكريات تناوشنى والهزيمة تجرى فى كيانى وجعلت أقرأ رسائلنا حتى رأيتنى أردد منها جملا وأنا متهيىء للنوم وأردد منها كذلك عقب يقظتى دون أن أشعر ، ثم أخذت أتعجب من الأحياء جميعا ومن نفسى أولا ، وأنظر إلى الأرض التى أطؤها بقدمى فأقول : عجيب ،... إننا نعيش فى تناقض .. ندفن فيها أحبابنا ، ثم نمضى بعد قليل لنزرعها ونسقيها !! نبكى بعين ، ونأكل بيد !! هذا عجيب !.

كان كل شيء من حولى ينادينى إذا سكن الظلام فإذا ما أجبته سخر منى : التلال .. والشرفة .. واللبلاب ، والسطح ، والسلم ، وكل شيء كأنها كانت الوجود .

واعتلت صحتى فرأيت أنه من الخيرلى أن أرحل عن منزلها هذا وعن مهد الذكريات ، وقد فعلت ، ولست أنسى الليلة التى حملت فيها حقيبتى بعد أن سارت بمتاعى عربة صغيرة ، ثم خرجت من عتبة بيتها لآخر مرة ، ولست أنسى هذه اللحظة لأننى خلت أذيال ثوبها خارجة من بين حديد الإطار وهى فى الشرفة وسمعتها وكأنها تقول : وداعا !! وهى تغالب دمعة محبوسة .. فاقشعر بدنى .

لكن ذكرياتى هاجرت ورائى واعتقلتنى حيث كنت ، ودخلت حياتى فى فترة من ظلام كثيف فلبست الشحوب واعترانى الهزال ، وانقسم الناس إلى مواسين ومستغربين ومتسائلين . وكنت أنا فى شغل عنهم جميعا . كنت طيفا من الأطياف يشمئز من كل بهجة ويسخر فى نفسه من أولئك الذين يتأبطون أذرع الأحباب ويمشون فى الخلاء ، على

الطريق ، بين سمع الربيع وبصره !!

ثم اشتدت بى العلة فاستشرت الطبيب فلم تجد المشورة ، قال لى الناس : تغذ ، وقد قال الطبيب : دواؤك الجوع !! ثم قالوا : أحب .. اجعل قلبك شغل نفسك تنس بدنك ، فابتسمت . ثم قالوا : الرياضة، اجعل بدنك شغل نفسك .. تنس قلبك !! فصدقت ، لأننى كنت غريقا فى الظلام أتعلق بأشعة المصابيح المنعكسة عل صفحة النهر . ودخلت أحد الحوانيت التى تبيع أدوات الرياضة فألفيت صاحبه طويلا هزيلا . فانصرفت .

لست أدرى من منا كان يتملق صاحبه فى هذه الفترة الكئيبة ؟ أأنا الذى أتملق الحياة أم الحياة هى التى تتملقنى ؟ ليت زينب كانت حية ، حتى نعيد النقاش فى هذا الأمر مرة أخرى على ضوء ما أنا فيه . على أننى لم أنتحر على الرغم من آلامى ... ما أعجب هذه الدنيا ... !! عربة كلاب : سجن ونباح وقذارة وسياط ، لكننا لانريد أن ننزل منها !! نعم لم أنتحر ... وبقيت حيث أنا ، ألبس رداء الصفرة سبعة أيام فى الأسبوع لا غير ، ومع هذا لم أقل للحياة : طلقتك .

وألقيت حبل الأيام على غاربها وتركتها تسير كما تسير ، كنت كالنائم فى القطار لا يعنيه أن يعد المحطات لأن رحلته طويلة جدا ، كنت أقضى أمور حياتى كلها بأطراف الشعور لأن صميم الشعور ولبابه كانا ميتين .

وينقضى عامان على هذا النحو فأجدنى على وشك أن أتم دراستى . وأجدنى إزاء عجيبة جديدة حين يدعونى صديق إلى أن أستعين بالطب مرة أخرى عل الشباب الذابل يسترد شيئا من نضارة الحياة ، وأستجيب لدعاء صديقى ثم أقول للطبيب الجديد : إننا نستعين بكم عليكم فأنتم مخالب القدر وأنتم ملائكة الرحمة . فأشرق وجهه البشوش الجميل بابتسامة دلت على أنه من القلائل الذين يفهمون نفوس المرضى .

ثم استأنفت الحياة على يديه وبدأت أنفض عنى الذهول كأننى أتخلص من آثار مخدر ، وتلفت نحو الشرق والغرب فتأكدت أننى فى الدنيا .

تذكرت الأصدقاء ، وتذكرت الناى ، وتذكرت الكتب جيدا جدا ، تذكرت الناس جميعا حتى أم ربيع ، لكننى لم أتذكر الحب . وأوليت عامى الأخير فى كلية الهندسة جهدا خاصا فنجحت واستردت بين أقرانى مكانتى المفقودة . وأخذت يد الزمان تجرى على القلب بشىء من البلسم فلم أعد أحس ألم الجروح ، وتحرك جناحا فؤادى من جديد لأنه قد نبت فيهما الريش ، ووجدتنى عقب إتمام دراستى أفتح ذراعى وأنشق من الهواء نفسا طويلا ، وكأننى قول : لقد طال جوعى ، هذه هى الحياة .

ثم دخلت على أبى فى أخريات نهار أزف إليه خبر نجاحى فخيل إلى أن الرجل قد جرت فى عروقه الخضرة ، وأن القبلة التى طبعها على

جبينى كانت مشحونة بمعان عدة : حب وشكر وفخر ثم دعاء ... ومن العجيب أنه كان دعاء بالرحمة ... لأمى ... هذا ما تصورته .

وقبلت عظمة ناتئة في خد والدى وكاد الدمع يطفر من عينى ، وكدت أقبل نفسى لو أننى استطعت لأننى أعجبت بقلبى الذى لم يحمل لوالدى حقدا .

أما أم ربيع فقد كانت مذهولة ، خيل إلى أنها كانت فى حيرة المحسوبين على وزارة مستقيلة ، لكننى لم ألق إليها بالا. وأما هنية فقد رأيت على وجهها فرحة ليس أعظم منها إلا التى كانت ترتسم على وجه حال بينى وبينه التراب ... على وجه الأم !!

***

وآن لى أن أصبح مهندسا للرى فى أحد بلاد الوجه البحرى ، فآن لأبى أن يستريح مما عسى أن يمدنى به من مال قليل .

وهأنذا اليوم أطوف القاهرة لأصفى حسابى ، بل لأستودعها أعز الذكريات على نفسى ثم أستوصيها بها خيرا .

وكان الفصل خريفا يوم كنت أنقل خطاى على الطريق الذى يحاذى النيل والذى انعكس على أديمه ظلالنا فى يوم حدثتك عنه ، كانت معالمه كما هى ، وكل شىء حاضر فيه : النيل ، والشمس ، وسور النبات ، والسمك ، والخطاطيف ، فلم يكن غائبا إلا الربيع ، والفراشات ، وزينب !!

وسرت مطرقا أستمع إلى وقع خطاى وأتوهم أنها معى ، وأنها

إنما تخلفت لبعض شأنها وستلحق بى !!

ما لنا نلح على ذكريات الأحباب بعد أن نفقدهم ، ونناجى صورهم ونتشبث بآثارهم ... ما لنا نفعل هذا ؟!

ثم رأيتنى فجأة أصعد سلم قلعة الكبش .. كان ذلك فجأة كحبها تماما فقد عرفته فجأة بعد أن غابت عنى ، كان هناك على الجبل وفى أحضان الكهوف مشاهد قامت بينها وبين قلبى أواصر ... كانت هذه المشاهد تنادينى وتجذبنى وتجرنى إليها بحبال لاأراها ، كنا فى ساعة الأصيل ، فى الوقت الذى طالما ذهبت فيه الشمس ثوبينا ، وبرقت أشعتها على ورق اللبلاب ونحن نتناجى ... كنت أريد أن أقول لهذه المعاهد وداعا ... وإلى أمد طويل .

ودرت حول البيت ، ونظرت إلى الشرفة فلم آر فيها أصصا ولا زهرا ولاحبيبا ثم درت حول البيت مرة أخرى ، ثم سرت نحو التلال وصعدتها حتى تراءى لى السطح وباب غرفتى ورأيت شبح امرأة تدخل هناك وتخرج وتطل من النافذة فى بعض الأحيان ، فأحسست بألم كأننى شريد أجلاه الغاصبون عن أرض وطنه .

وينقضى يومان تتبدل بعدهما الأماكن وتتغير المعالم ، فأرانى مهندسا فى أحد مراكز الوجه البحرى .

وتهادننى الأيام ياصديقى ، وتمر فترة من العمل هادئة لاصخب فيها ولاصراخ ولا أنغام ، فترة فيها تعادل أعيشها فى تراخ وتثاؤب كأنه استجمام من متاعب الماضى : أكل وشرب وسهر فى نادى

الموظفين بالمركز ، وأداء لأعمال رسمية بطريقة رسمية كذلك ، لكننى كنت ساكنا فى جنة .

ولم تنقطع صلتى بصديقى راشد لأننى حريص على الصداقات كما تعرف . وقد من الله عليه فحظى فى شركة التأمين بمنزلة مرموقة أكدت بعدها بينى وبين نفسى أن المدرسة شىء وأن الحياة شىء آخر .

وكان أشد ما أعجبنى أننى سمعت المذياع فى نادى الموظفين ذات ليلة يبعث إلى آذاننا بنغمات من ناى ساحر فذكرت صديقى ساعتئذ وجعلت أرمى بحبات النرد فى وسط المستطيل الخشبى بحركة مرحة منتشية وأنا أمازح ملاعبى ، حتى سكت العزف وذكر المذيع اسم العازف فصفقت لأنه ذكر اسم راشد ، ثم تذكرت نايه الأبيض .

أما أبى فقد كنت برا به . كنت أراه فى الفترات التى أتمكن فيها من الأسفار وأرى زوجته بطبيعة الحال ، فأحس المحبة فى إطار من البغض !! وشب ربيع وأصبح مع الأسف يمثل شبابا أتلف عليهم حياتهم حنان الأمهات ، كسب ضئيل من أعمال تافهة ، قلت فى نفسى لما رأيته هذه الزورة : لو أن أمه قسمت حنانها فمنحتني ربعه وظللت عليه بالباقى لكان من الجائز جدا أن يتغير موقف كلينا ، لكن هذا هو الذى كان !!

ثم فوجئت فى إحدى الأمسيات ببرقية تستدعينى سريعا إلى القرية ، فأيقنت أن هناك شرا .. ولم أتمكن من الوصول إلى دارنا إلا فى مساء اليوم التالى . دنوت من الدار فعاين قلبى كل ما فيها قبل

أن أراه ثم دخلت فرأيت أبى صريع الشيخوخة ...

كان بقية رجل وآثار إنسان استلقت على السرير ، لم يكن فيه قوى إلا إشعاع عينيه أما الباقى جميعه فقد خبا !! أحسست أن حصنا سينهدم ولو أنه لم يدافع عنى .. قلعة نذكرها عند المخاوف ونشم منها رائحة الأمان .

كانت زوجته تضطرب فى الغرفة جيئة وذهوبا وعيناه تضطربان فى أثرهما أينما ذهبت ... ورأيت تحت نورالمصباح نظرات غير التى كنت أراها فى أيام تقضت : خيل إلى أن بريق الفناء يمتزج فى عينيه بوميض الشك والأسى والحسرة . ولست أدرى ما الذى تخايل على وجهى فى هذه اللحظة لأننى أفقت على كفه المعروقة وهى تربت كتفى ثم خدى ، ولسانه يقول : حسنى !!!

ـ أبى !!

فسكت ريثما ابتلع ريقه ثم أسبل أجفانه ثم فتحها وكاد القلب يتطاير شظايا حين رأيت فى عينيه شبه توسل ... لكم وددت فى هذه اللحظة أن يظل عنيدا كما كان ... وأن يظل قاسيا !! قلت له :

ـ لبيك يا أبى ! وغامت العينان بالدموع .

ـ ستنسى كل ما فات يا بنى ! ... سألتقى بمن كانت أشد الناس وفاء لى ...

وتجددت مظاهر الأحزان بالنسبة لى مرة أخرى ، وودعت القرية لأمد غير قريب .. ثم حننت إلى رؤاها بعد عام فدخلتها . وكانت



خيـل إلى أن بريق الفنـاء يمتزج فى
عينيه بوميض الشك والأسى والحسرة

ذكريات أيامي جميعا على كتفى أو بين كفى فى هذه اللحظة . شد ما كان أسفى شديدا حين عبرت عتبة الدار فرأيتها كأنها تستنجد بى . كل شىء فيها ينم على الفاقة حتى أم ربيع .. كانت الأيام قد استنزفت بقية نضرتها . وخلت أننى أجوس خلال مقبرة . وجعلت أتنقل فى جنبات الدار وأنا منكس الرأس ، وعبرت الممر إلى الساحة القبلية حيث النخلتان وحيث كنت أنام فى حجرتى الشتوية وحيث كنت ألتقط البلح وأصطاد الزنابير- عبرت فرأيت شيئا قد تعده أنت تافها لكننى عددته شيئا عظيما ، كانت إحدى النخلتين قد لحقتها الشيخوخة أو أدركها ما لست أعرفه ، فقضى عليها أن تقطع ثم قسم جذعها نصفين رمى بهما تحت أقدام النخلة الأخرى . كانت ممددة فى فضاء الباحة من الشرق إلى الغرب فخيل إلى أنها جثة ، وأن زميلتها الأخرى منحنية عليها تبكيها !!! فكفكفت دمعة ومسحت عرقا !! ألم أقل لك : إننا نحب أوطاننا حتى ولو قست علينا ؟!

ثم جلست أنا وأخى !! .. كانت معنا أم أخى !!! فسألته سؤالا ألفه الناس ، ولعلى كنت لاأعنى ما أقول :

ـ كيف الحال ؟

ـ كما ترى يا أخى !

وقلب كفيه ونظر ، ثم أطرق .

قلت فى نفسى : إنه يستصرخنى ... إنه يستنجد بى ... إنه غريق فى خضم من الفاقة .

واستخرجت الذاكرة شريطا أسود عرضت به حوادث الماضى وتراءت جزيئاتها لعينى .. ورأيت بعين الخيال أوعين الحقيقة غلاما فى التاسعة من عمره يطارد أحد الزنابير ويلقى عليه قلنسوته ثم يفطن لنفسه فيرى صيدا ... وصيدا آخر ! ويفر إلى شجرة الجميز .. بعد أن يرمى بالبرتقال .. و ..

فكدت أبسم باكيا وأنا أبكى وأنا باسم . ونظرت إلى ربيع .. ثم قلت فى نفسى بعد مدة : سأمد إليه يدى ... إنه إنسان على أى حال!!

وقد فعلت .

- ١٠ -

ثم درجت في دروب الحياة كما يدرج الناس ...

وأخذت أسير نحو ذروة الشباب عاما بعد عام ، وأخذت ذكريات المآسى تغوص فى ضباب الأيام قليلا قليلا قليلا فلا أرى أشباحها بوضوحها القديم . وجددت أصدقاء وأوطانا لكن القلب كان لايزال فى غفوة .

لست أدرى هل كنت لا أعرض لهن أم هن اللاتى كن لايعرضن لى ... على أى حال كنت لا أرى ولاأرى . كنت مشغولا بهندسة الرى وتطهير الترع ورعاية المناسيب ونادى الموظفين ، وثلة الأصدقاء هناك يلعبون الورق ، ويمزقون أوصال الزمن بحبات النرد ، ويقررون المصاير على رقعة الشطرنج بشغف وحماسة ، حتى إذا ما ملوا وبقى من الليل أو النهار وقت قليل قطعوه فى استقراء حوادث المركز ، فتناولوا المباح منها وغير المباح . مساكين ... الوقت ! يريدون أن يضيعوه . ألاتعلم أن الوقت يعتبر مشكلة كبرى عند كثيرمن الناس ؟!

وهأنذا فى الربيع السابع والعشرين من عمرى وفى فصل من فصول الشتاء .

السحاب فى السماء ألوان لكنها داكنة كلها . والشمس تطل من

تفاريج بينه صغيرة ثم تسارع فى الاختفاء ، والعمال منتشرون فى قاع الترع الجافة يحفرون ويغنون ويصخبون ويتشاجرون .

وأكوام الثرى شديدة السمرة لأن عليها آثارا من مطر البارحة .

وحتى الطرق بدت سمراء جدا لكنها جميلة وسط المزارع الخضراء.

وأعمال التطهير قائمة على أشدها لأن المقاول موجود ومهندس الرى فى المرور .

والتقيت بالسيد المقاول ...

كان رجلا تفوح منه رائحة المال ... وهذا هوالذى شممته منه !! فى الخمسين من عمره وكأنه شاب ، يلفت نظرك منه أول ماتراه سلسلة ذهبية غليظة ترسم هلالين كبيرين مفتوحين على ناحيتى صدره . وشارب هذبت أطرافه بعناية . كنت أفر من تودده ولكننى أحس أننى فى نطاق شخصيته ، كنت أعارض رغباته قليلا ثم لاألبث أن أستجيب لها ، لماذا ؟! لست أدرى !!

وتبادلنا التحية ثم تجاذبنا الحديث فإذا به يديره بشكل ساحر ... كان الكلام فى فمه أشد حلاوة من الخمر تديرها الحسناء . وسرنا ووقفنا ثم سرنا ووقفنا ثم قال : الجو بارد ، فلم أستطع أن أقول : لا .

فأشار إلى سيارته التى كانت منتحية على أحد الطرق ناحية واسعة لا تراب فيها . وقال : « فنجان من الشاى يخفف من برد الشتاء ياحضرة المهندس » .

وهناك فى السيارة رأيت إناء من النوع الذى يحفظ الحرارة والذى يطلق على اسم « ترموس » وكان مليئا بالشاى .

كان الإناء فخما ، وكانت السيارة كذلك ، وكل شىء يوحى بالثراء . بيد أنى لم أهتم بكل ما رأيت ، لأن شيئا واحدا ملك لبى واستأثر باهتمامى .

لقد ناداها أبوها فألقت بالمجلة جانبا ونزلت لتحيينى ، كان معهم فناجين إضافية وبعض شىء من الطعام لأنهم يحتاطون للظروف . ووقفنا نرتشف الشاى الدفىء ونشغل الفترة بين الرشفتين بأحاديثنا المتدفقة . وكانت ريح خفيفة غير رعناء تداعب أذيال معطفها فتحسره قليلا عن ثوبها ، أو تجاذبها غدائر شعرها فتعيدها هى إلى مكانها برشاقة .

وتناول الحديث نواحى شتى .

كان منها الريف وسحر الطبيعة فيه ومزايا سكناه وعيوبها ، ولم تنس الآنسة « بهجة » أن تختم حديثها عنه بقولها « شد ما أتمنى أن أعيش فيه » .كانت عيناها تنطقان بالصدق ونبراتها تفيض بالسحر حين ألقت بهذه العبارة وقد علق أبوها على حديثها هذا بضحكة عالية رنانة لا تخلو من الفخر والسعادة .

ثم قال : دائما راضية ، عن كل مكان ... ما سمعتها شاكية قط ياحضرة المهندس .

واستغرقت معها فى الحديث كأننا تعارفنا منذ أمد طويل ،

وانتبهت فترة من استغراقى فوجدتنى منفردا بها لاثالث لنا ، لأن أحد المتعهدين كان قد انتحى بأبيها ناحية قريبة يحادثه ، ثم سارا معا مستغرقين فيما كانا آخذين فيه ، ولم أنتبه أنا إلى ما وقع ، لأننى كنت مستغرقا كذلك ولست أدرى لم عن لى أن أسألها قائلا وبغير مبالاة : أتودين حقيقة أن تقيمى فى الريف ؟؟ فأجابت بإيماءة جميلة ، فلم أتمهل حتى أبتلع ريقى بل تابعت حديثى : بحيث لو سنحت لك فرصة إقامة رحبت بها ولاترفضيها ؟؟ .

واستودعت ما قلت كل مادب فى قلبى من حرارة ، لقد تفتحت فى القلب نوافذ وأبواب انصب منها النور فى فضائه المظلم الشاسع ، ما هذا الذى حدث لى ؟ ومن هذه التى أراها ؟ لكأننى أعرفها ! .

وجرت فى بشرتها البيضاء حمرة رائعة وابتسمت مسبلة من أهدابها لأنها فهمت ما أعنى ....

وقضيت معظم ليلتى تلك فى استراحة القناطر هادئا مفكرا ، فلم أذهب إلى النادى ولا إلى مسكنى فى المركز . وجعلت أستعيد ساعة الصباح والتقاءنا تحت ظل السحاب وما دار بينى وبينها من حديث ، وأعجب كيف انقلب فؤادى المريض وقلبى الشكاك إلى هذا المآل وذلك الوضع ، بحيث أثرت فيه هذ اللمسة ، وتراءت لى الحياة شيئا غريبا أبتر إذا لم يكن إلى جوارى مثلها ، وأمسكت بالناى وسكبت أنغامه فى نغم الطبيعة ، فانقلب الليل من حولى إلى لحن ساحر : ريح خفيفة تصفر فى ذوائب الشجر متلمسة طريقها فى الظلام وأنين ساقية وغناء

فلاح ونباح كلب . ثم صوت نايى . وكففت من العزف لأذكرصديقى «فؤادا » الذى يتساءل الآن عن سبب غيابى . ثم لأتصور مستقبلا ناعما هادئا وارف الظل فى أحضان ... من ؟ .

غير أننى هيأت فرصة أخرى للقاء آخر حين دعوتهما إلى تناول فنجان من الشاى فى الاستراحة ، وجلسنا ثلاثتنا فى مكان بعيد عن عيون الناس والعمال ، وقد كنت فى هذه الجلسة كأننى عدو لقلبى ... كنت كمن يستعجل السكر بعد كأسه الأولى أويتملق النوم بإغماض عينيه وإرخاء أوصاله ، كنت كأننى غامس قلبى فى نبع الحب متعجلا شربه وامتلاءه ، كنت معرضا للإصابة متمنيا له الرق الودى والعبودية الاختيارية كما قالت عنه التى فقدناها .

وجال بنا الحديث كل مجال وعرفت من أمرها وأمر أبيها ماجاد به الحديث . كانت مقيمة فى القاهرة وستسافر غدا إليها . وسأشعر أنها فارقتنى بلاشك وسأفكر فى أمرها وربما تألمت .

ثم وجدتنى مع الأيام أنحى على نفسى بالملام وأتهمها بالسفه لأنها هى التى جرت على ما أعانيه ، إننى أريد أن أراها وأحس أنها بعيدة وأن البعد بينى وبينها لابد أن يطوى مادامت هناك وسيلة يمكن أن يطوى بها البعد . وأغالب شوقى ويعود أبوها للمرة الأخيرة ولا تكون معه فأحس كأن يدا تقبض على قلبى . وأسأله عنها فيؤكد لى أنها بخير ، ويتحرك لسانى فى فمى ليقول شيئا ولكنه لا يجد ريقا يساعده على الحركة ، كنت أريد أن أقول له : هل ترضيننى ابنتك زوجا

لها ؟!

وتنتهى أعمال التطهير وأودع المقاول بحنان لا يدريه ، وينقضى يومان أنقم بعدهما على الزمن ... إنه عامل سيىء ... إنه كثيرا ما يخلق مودات ويقتل علاقات ... وأسافر إلى القاهرة لأبيت ليلة ثم أعود لكننى أعود بشر ما يئوب به المسافرون . وأقضى الليلة التى أقمتها فى العاصمة وأنا أنقل خطاى على النيل أمام البيت جيئة وذهوبا ، وأرى السيارة وأقرأ رقمها ، وأرى سيدة حسناء نوعا تدل المظاهر من بعد على أنها أمها ، وأرى معها شابا مكتمل الشباب أظنه أخاها ، لكننى لاأرى وجهها هى ولا من خلال نافذة . وتنازعنى قدمى إلى أن أدخل وأن أسأل عن المقاول فأجد حياء شديدا يتحول إلى قيد يمسكنى فى مكانى ... ثم أعود فى اليوم التالى مبلبل الأفكار .

***

واجتمعت الليلة أنا وصديقى فؤاد فى استراحة القناطر فقال صاحبى : استمع يا صديقى فإنى سأحدثك بسر خطير ، فملت نحوه وأنا فى مقعدى فهز رأسه مرتين ثم بدأ يتحدث :

أنت أخى وابنى وصديقى ... كان من الممكن أن تكون أحد أبنائى لأننى الآن أخطو إلى الستين ولكننى على الرغم من ذلك أحترم رأيك واثق فيك ولاأبخل عليك بسر ومشورة.. اسمع ياحسنى : أنت تعلم أننى مفلس لأننى أنفقت فى صدر حياتى ماكان يجب أن أدخره لأخرياتها وتعلم كذلك السبب الذى حال بينى وبين أن أتزوج فقضيت

العمرحرا كما يعلمون ، وحزينا كما لايعلمون ، لأننى تركت الفرصة الأولى تضيع فمكنت لغيرها من الفرص أن يلحق بها ... وهكذا فعلت.

لكننى الآن ياصديقى أحسست أن قلبى كالشجرة المثخار تلمع بين أوراقها إحدى الثمار ، بعد أن ينتهى موسم الفاكهة . لقد أحببت يا صديقى وحب الشيوخ كحب الأطفال قوى جارف لاتلتمس فيه العلل إن صح أننا نبحث عن علة للحب ، أو لكأن قلوبنا فى أخريات الحياة تلتمس أن تعمل عملا عظيما كالذى نبحث عنه بعقولنا لتخلد بذكره ذكرانا ، وقد كنت مثال رائعا للذين لايفكرون فيما يعلمون .

لقد تركت الفرصة تمر منى أول الأمرثم احتقرت بعدها كل فرصة . وهأنذا اليوم أستفيق على طرقات عنيفة تدق أبواب قلبى وأحس كأن رتاجه العظيم يصر لينفتح لساكن لن يخرج منه حتى يقوض بناءه .. لذلك .. سأتزوج سأحاول أن أتزوج من أحب .

وسكت ، ونظر إلى فأمسكت قلبى بيدى ، وخيل إلى أنه سيكف عن النبض . وقلت فى نفسى : لعله وباء ... لعلنا نحن الرجال تصيبنا فى الشيخوخة أمراض مختلفة الأعراض ، منها احتباس البول . ومنها انسياب الحب . وقطعت سلسلة أفكارى بنفسى فقلت له : لا بأس يا سيدى ... امرأة تكفل لك الراحة فى النهاية المحتومة التى تدرك كل إنسان ، ولعلها أرملة أوعانس جميلة .

فضحك بخفة المتصابين : فاشمأززت وكدت أبطش به بيدى أو

بلساني أو بهما معا . ثم قال : إنها فى حدود الثلاثين ... أرمل ؟! .. أعوذ بالله !! لاأحب إناء سبقنى إلى الشرب منه أى إنسان ... إننى عاقل ..

فرجعت فى طريق العمر أعواما طوالا حتى تذكرت رجلا تحت أطباق الثرى ... تذكرت أبى الذى كان يقول دائما : « إننى عاقل .. إننى ذكى .. إن رأسى هذا جمجمة أقفلها الله على جمرة متقدة وهاجة» فثرت وغلى الدم فى عروقى لما ثارت بى الذاكرة وقلت لصديقى وأنا منتفخ الأوداج :

ـ اسمع أيها الرجل ..إنهم يقولون : « لا جديد تحت الشمس » . ولعلهم يقصدون أن تجربة واحدة ، ومن أى نوع تمربآلاف من الناس فى مختلف البقاع والأصقاع ، وفى أى زمن من الأزمان .ستسقط فى بئر سقط فيها أبى . لقد أخفيت عنك أشياء فى قصة حياتى لاعتبارات رأيتها سليمة فيما مضى ، أما الآن فإنى سأصارحك بكل شىء ... فانتفض منتبها ، فقلت له :

ـ قد كنت غير صريح معك فى يوم حدثتك بأمر زينب لأننى أخفيت عنك شيئا . قال : هاته . فرويت له قصة صباى كمارويتها لك.

وكشفت له عن كل مافيها ، ثم حدثته بأمر التى سقطت فى طريقى وكانت حتى آخرأنفاسها تود أن تسعدنى ، ثم بحت له بسرى وإعجابى بالآنسة بهجة ، وبسفرى إلى القاهرة مرتين ، وبطوافى حول بيتها مؤملا أن أرى وجهها .

وانتفض صديقى فى مجلسه كأنه ملسوع وأشار إلى بكفه ، ثم قربها من فمى ليحول بينى وبين الكلام وهو يقول لى : كفى كفى وبحسبك ... فهمت كل شيء ... نجوت ياأخى ، ونجوت أنا كذلك .. لقد جاهدت زينب طويلا حتى فتحت الحصن .. فتحت قلبك ثم خرت صريعة فى الميدان ... لقد ماتت شهيدة . وهاهى ذى فتاة أخرى تتمتع بميراثها العظيم .. أنت مدين لها بما ستلقاه من سعادة مقبلة فى حياة زوجية لايشوبها وسواس ، ولكن احذر أن تتردد وإياك أن تقع فى أخطائى . سافر إلى القاهرة وتقدم طالبا يدها .

قلت : لكنهم أغنياء . فقال : وهل أنت فقير ؟ .. هل تبيت فارغ المعدة ؟!

(كفر بولين ١٩٤٩)

رقم الإيداع ٢٥٦٠

الترقيم الدولى ٥ ـ ٢٢٦ ـ ٣١٦ ـ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه